دار الثقافة



Bibliotheca Alexandrina
0015316



حق وحياة

دكتور فؤاد بولس



طبعة أولى

المسيح حق وحياة

صدر عن دار الثقافة - ص. ب ١٢٩٨ - القاهرة

جميع حقوق الطبع محفوظة للدار (فلا يجوز أن يستخدم إقتباس أو إعادة نشر أو طبع بالرونيو للكتاب أو أى جزء منه بدون إذن الناشر ، وللناشر وحده حق إعادة الطبع)

١٠ / ٦٦٢ ط١ / ١ - ١/ ٩٥

رقم الإيداع بدار الكتاب: ٩٥٨٢/ ٩٥

977 - 213 - 296 - 6

جمع وطبع بمطبعة سيوبرس

اهــــداء

بكل الحب والتقدير أهدي هذا الكتاب إلي الكنيسة الإنجيلية بمصر الجديدة وإلي راعيها المحبوب الفاضل

دكتور القس مكرم نجيب

من أجل الخدمة المتميزة الرائعة متمنياً للجميع كل تقدم لمجد الفادي.

دكتور فؤاد بولس

مقدمة الدار

مُع أن الكتب التي كتبت عن شخص الرب يسوع لا تحصي ولا تعد، لكن لكل كتاب مذاق خاص. لهذا نحن نقدم هذا الكتاب الذي جاء في وقت تصاعدت فيه الأفكار الفوضوية التي تدعو إلي العبث.

ولقد جاءت هذه الدراسة التي تدور حول شخص المسيح في صيغة تأملات هادئة كتبت بمداد من الحب. ونحن نحتاج دائماً لأقلام العشاق فهي وحدها التي تستطيع أن تكتشف الحب وتصور الجمال وتصل إلي القلب.

ولقد جاء عنوان هذا الكتاب مثيراً، فمن ذا الذي يستطيع أن يقف وسط التاريخ منادياً "أنا هو الحياة"؟!!..

غير أن العالم سرعان ما اكتشف صدق هذا النداء وشدة حاجته إليه. فالبشرية التي ضلت الطريق مازالت تدمر نفسها علي صخور صراعاتها وتفرق نفسها في بحار شهواتها لهذا جاء هذا الكتاب في وقته ليجدد الدعوة للإنسان في كل مكان وزمان حتي يجد الحياة الفضلي في شخص رب الحياة يسوع...

دار الثقافة

في هذا الكتاب

مقدمة

أردت...

أردت أن يكون طيفه "هو" أول ما تكتحل به عيناي كل صباح..

وأن يكون صوته "هو" الذي يرن في أعماق كياني طوال اليوم..

وأن يكون شخصه "هو" الذي يهيمن علي كل مشاعري ووجداني في الصحو وفي المنام..

وما أحسب نفسي في إحساسي هذا إلا واحداً من ملايين الملايين الذين جذبهم "هو" إلي شخصه، وهيمن "هو" عليهم بروحه، فوجدوا أن الحياة لا تحلو إلا به ومعه...

إن يسوع المسيح، هو ذلك الشخص العجيب الفريد الذين استطاع أن يفرض نفسه علي العالم في كل زمان ومكان.. ذلك لأنه شخص حي.. كائن منذ الأزل وإلي الأبد.. إنه ليس بأسطورة داعبت خيال البشر، الذين لشدة تشوقهم إلي الكمال والجمال، أخذوا يتخيلون تلك الشخصية البديعة الرفيعة. لكن، هل كان للفكر السقيم أن يتخيل ذلك الكمال المطلق، وتلك القداسة المتناهية؟!..

لذا فإن الرسول الكريم يؤكد قائلاً "لأننا لم نتبع خرافات مصنعة إذ عرفناكم بقوة ربنا يسوع المسيح ومجيئه بل قد كنا معاينين عظمته. لأنه أخذ من الله الآب كرامة ومجداً إذ أقبل عليه صوت كهذا من المجد الأسني،

هذا هو ابني الحبيب الذي أنا سررت به. ونحن سمعنا هذا الصوت مقبلاً من السماء إذ كنا معه في الجبل المقدس" (٢ بط ١:١٦ -١٨).

مجد.. كرامة.. قوة.. عظمة..

هذه هي الكلمات التي استطاع بها الرسول أن يصف سيده عندما تجلي أمامه.. ولقد أردت في هذا الكتاب أن أركز نظري علي سيدي.. أن أتأمل في ذلك البهاء المنقطع النظير.. أن أتمعن في ذلك الحب السماوي العجّيب.. أن أري ذلك المجد الذي لا حدود له.. أن أراه هو وليس أحد سواه..

أخذت أسير حيث سار الحبيب، وأتأمل المواقف التي اتخذها.. فالحياة مواقف.. وشخصية الإنسان لا نعرفها من مجرد كلمات ألقاها، أو أعمال قام بها. لكن المواقف التي يتخذها الإنسان من قضايا الحياة هي التي تكشف أعماقه وتعلن عن حقيقة جوهره.

ولقد ترك لنا السيد حياة حافلة بالمواقف الرائعة الخالدة.

لذا، فإن السيد لم يكتب لنا كتاباً يبلي، بل كان هو الكتاب.. لم يوقد لنا سراجاً يخبو بل كان هو النور.. لم يترك لنا حديثاً يتبدد بل كان هو كلمة الحياة.. كان يسوع المسيح هو الحياة في ملء فيضها وغناها.. الحياة التي قهرت الموت.. الحياة التي فجرت ينابيع الحياة.. حياة من قال عن نفسه بصدق "أنا هو الحياة.." أخذت أتمعن في أبعاد تلك الحياة وأسبح في ذلك الأوقيانوس الواسع الذي بلا حدود.

خمس سنوات مضت وأنا مازلت أسبح في تلك البحار الواسعة الشاسعة.

وها أنذا أقدم هذه التأملات الهادئة الخاشعة عن رب الحياة، إلي أخي الإنسان مصلياً أن كل من يقرأها يلتقي به ويجد فيه الحياة بملئها وفيضها وغناها..

المؤلف

الفصل الأول

هل أنت هو المسيح ؟

كانت المدينة الوادعة،مدينة أورشليم، تعيش أحلي أيامها. فلقد كان العيد، عيد الفصح، قد جاء، وأتي معه ذلك الأريج الحلو الذي يعبق الحياة. إنه أريج الذكريات القديمة العطرة، ذكريات تلك الأحداث العظيمة التي أدت إلي خروج بني إسرائيل من أرض مصر...

لهذا كان اليهود، من عام إلي عام، ومن جيل إلي جيل، يحرصون كل الحرص علي الاحتفال بهذا العيد، وتنفيذ كل الفرائض التي تختص به، بكل دقة. فلقد كانت هذه فرصتهم ليستعيدوا تلك الذكريات الحلوة، ويتحدثوا عن تلك الأحداث العظيمة حتي يحتفظوا بها حية في عقولهم وفي أعماق وجدانهم..

ويمكن الرجوع إلي العهد القديم لنتعرف علي كل التفاصيل الخاصة بهذا العيد العظيم.

"وكلم الرب موسي وهرون في أرض مصر قائلاً.هذا الشهر هو لكم أول شهور السنة.كلّما كل جماعة إسرائيل قائلين في العاشر من هذا الشهر يأخذون لهم كل واحد شاة بحسب بيت الآباء شاة للبيت... تكون لكم شاة صحيحة ذكراً ابن سنة. تأخذونه من الخرفان أو من المواعز. ويكون عندكم تحت الحفظ إلي اليوم الرابع عشر من هذا الشهر. ثم يذبحه كل جمهور جماعة إسرائيل في العشية. ويأخذون من الدم ويجعلونه علي القائمتين والعتبة العليا في البيوت التي يأكلونه فيها. ويأكلون اللحم تلك الليلة مشوياً بالنار مع فطير. علي أعشاب مُرة يأكلونه.. وهكذا تأكلونه:

أحقاؤكم مشدودة وأحذيتكم في أرجلكم وعصيكم في أيديكم. وتأكلونه بعَجَلة. هو فصح للرب. فإني أجتاز في أرض مصر هذه الليلة وأضرب كل بكر في أرض مصر من الناس والبهائم. وأصنع أحكاماً بكل آلهة المصريين. أنا الرب. ويكون لكم الدم علامة علي البيوت التي أنتم فيها. فأري الدم وأعبر عنكم فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر. ويكون لكم هذا اليوم تذكاراً فتعيدونه عيداً للرب. في أجيالكم يعيدونه فريضة أبدية" (خر ١٢:١-١٤).

"فدعا موسي جميع شيوخ إسرائيل وقال لهم اسحبوا وخذوا لكم غنماً بحسب عشائركم واذبحوا الفصح... فتحفظون هذا الأمر فريضة لك ولأولادك إلي الأبد. ويكون حين يقول لكم أولادكم ما هذه الخدمة لكم. أنكم تقولون هي ذبيحة فصح للرب الذي عبر عن بيوت بني إسرائيل في مصر لما ضرب المصريين وخلّص بيوتنا. فخرّ الشعب وسجدوا" (خر ١٢:٢١ ، ٢٤-٢٧).

وهكذا كانت كل أسرة تجتمع في تلك الليلة ليأكلوا الفصح معاً. وكان الآباء يحدثون الأطفال عما يعنيه ذلك العيد لهم. وكانت العائلة كلها تصغي بانتباه شديد، ويلتفون حول الحمل المذبوح في خشوع، فلولا ذلك الحمل لهلك العبرانيون كما هلك المصريون علي السواء...

الأسئلة البريئة

كانت قصة الفصح تتردد في كل البيوت، وكان بعد أن يفرغ الآباء من

حديثهم أن تبقي الأسرة في صمت، وكانوا يصرفون الوقت الطويل في تأمل كل التفاصيل الدقيقة التي تختص بفريضة الفصح، وتلك الأحداث العجيبة التي أدت إلي خروجهم من أرض مصر...

لكن فترات الصمت هذه، كانت عادة لا تطول. فبعد أن يصمت الكبار كان الصغار ينفلتون في التحدث وفي إلقاء الأسئلة البريئة دون أدني تحرج...

قال أحدهم: هل أفهم يا والدي من هذه القصة أن الخروف المذبوح كان أقوي من الملاك المهلك؟.. ألم تقل أن الملاك المهلك لم يدخل البيوت التي رش علي بابها الدم؟.. إذاً كيف استطاع ذلك الخروف أن يتصدي للملاك؟.. تري هل خاف الملاك من منظر الدم؟!..

وقال آخر: إذا كان فرعون هو الذي أخطأ في حق شعب إسرائيل، فلماذا كان علي الإسرائيليين أن يقدموا الذبيحة؟ وهل كان الملاك ليهلك أبكار العبرانيين أيضاً مثل أبكار المصريين؟!...

وقال آخر: ولماذا كل هذا التدقيق في اختيار الخروف، ولماذا نأكله مشوياً بالنار مع أعشاب مرة؟.. آه، لماذا يختلط المر دائماً بالعيد؟!..

وقال آخر: إذا كان الله قد أنزل هذه الضربات القاسية علي فرعون أليس بالأحري ينزل ضربات أشد وأقسي علي الرومانيين لينقذنا من الذل والاستعباد؟... إني أري أن العبودية في أرض الأعداء أهون بكثير من

العبودية في أرض الميعاد...

كان هناك سيل من الأسئلة البريئة الحائرة التي لم تجد لها إجابة، لكنها أهاجت المواجع. فقد كانت ليلة العيد في ذلك الوقت هي ليلة الأحزان المكتومة والأفراح المفتعلة. فالحاضر المرير كان يخيم علي العيد بظلاله الكثيفة، وكان الكثيرون يأكلون من الأعشاب المرة في عصبية بالغة، وقد ازدادت مرارة في حلوقهم!!..

لكن بالرغم من كل الظروف القاسية، كان العبرانيون يعيّدون الفصح في إصرار وعناد. فإن كان العيد قد فقد الكثير من بهجته وزهوته، لكنه كان دائماً يضيء شعاعة الأمل والرجاء. كان اليهود يجدون فيه القوة التي تدفعهم إلي الأمام. لذا فإنه مهما كانت الظروف قاسية، كانوا لابد وأن يعيّدوا العيد، وأن يلتفوا حول الحمل المذبوح، وأن يتذكروا كل المعجزات العظيمة التي أجراها الله مع آبائهم، وأن يبتسموا ولو ابتسامة ذابلة. لقد كان ذلك العيد يعطيهم القوة للصمود...

ساد الصمت مدة طويلة، وإذا بأحد الشيوخ يقول: "منذ سنتين أو ثلاث سمعت يوحنا المعمدان يصيح قائلاً هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم" (يو ١:٢٩) قال هذا وهو يشير إلي يسوع الناصري. وأنا أعتقد أن هذا قد يوضح لنا شيئاً من الأمور الغامضة علي أذهاننا. فمن الواضح أن الخروف لا يقدر أن يفدي الإنسان. وهل يمكن أن يفدي الغث الثمين؟!.. فعندما قدم أبونا إبراهيم الخروف ذبيحة عوضاً عن ابنه إسحق لم تكن هذه هي الفدية

الحقيقية، لكن الخروف كان يرمز لذبيحة أخري عظيمة، أعظم من كل الذبائح، بل أعظم من كل بني البشر. وهذا يمكن أن يفسر لنا لماذا تراجع الملاك المهلك أمام دم الخروف، ذلك لأنه رأي فيه دم تلك الذبيحة العظمي...

آه، لكن هل يمكن أن يكون يسوع الناصري هو ذلك الحمل حقاً؟!..

سكت الشيخ وحل الصمت بالجميع، وأخذوا يتأملون في كل ما قاله. وإذا بشيخ آخر يقول: لا، أنا لا أعتقد ذلك. نحن نعتقد أن المسيح في حقيقته هو المسيا المنتظر الذي عند مجيئه سيعيد للأمة اليهودية أمجادها وينقذها من ربقة الاستعمار. لكن يسوع الناصري هذا شخص وديع ومتواضع "لا يخاصم ولا يصيح ولا يسمع أحد في الشوارع صوته. قصبة مرضوضة لا يقصف. وفتيلة مدخنة لا يطفيء.." (مت ١٢:١٩-٢٠)، فهل يمكن لشخص مثل هذا أن يحارب الاستعمار ويخلص الأمة من الاستعباد؟...

وهنا قال أحدهم، لقد أمضي يسوع أكثر من ثلاث سنوات وهو يبشر بملكوت الله. ونحن لا نعرف بعد ما معني هذه الكلمات. لكننا رأيناه يعلّم تعاليم سامية عظيمة ويجري الكثير من المعجزات حتي أن الكثيرين يعتقدون أنه هو حقاً المسيا المنتظر. ففي إحدي المرات أشبع يسوع أكثر من خمسة آلاف رجل بخلاف السيدات والأطفال، تصوروا أنه أشبع كل هؤلاء بخمسة أرغفة شعير وسمكتين!!.. والأغرب من هذا أنهم عندما جمعوا

الكسر ملأوا اثنتي عشرة قفة من الكسر" فلما رأي الناس الآية التي صنعها يسوع قالوا إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلي العالم. وأما يسوع فإذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكاً انصرف أيضاً إلي الجبل وحده" (يوحنا ٦:١٤ و١٥).

ومنذ بضعة أيام قليلة رأيناه داخلاً إلي أورشليم، راكباً علي جحش ابن أتان. وكانت الجموع الغفيرة ملتفة حوله وهي تصرخ قائلة "أوصنا لابن داود.. مبارك الآتي باسم الرب.." (مت ٢١:٩) ثم شاهدناه بعد ذلك يدخل الهيكل وبكل عظمة وسلطان أخذ يطرد الباعة ويقلب موائد الصيارفة. حينئذ اعتقدنا أن الجماهير سوف ينصِّبونه ملكاً هناك لكن من العجيب أنه اختفي ولا نعرف الآن أين هو..

تري هل هذا هو المسيح؟!..

كان هذا هو السؤال الهام الذي كان يتردد في كل البيوت. هل يسوع الناصري هو المسيح؟.. المسيا المنتظر؟.. ملك اليهود؟.. وعندما تساءل المجوس في حيرة قائلين "اين هو المولود ملك اليهود" (مت ٢:٢) كان كل الشعب يردد هذا التساؤل في أسي وألم قائلين أين هو ملك اليهود؟.. وإذا كان يسوع هو حقاً المسيا إذاً لماذا لا يرحمنا؟.. بل لماذا لا يرحم نفسه وإيانا؟!.. أليست آلامنا هي آلامه، وأوجاعنا هي أوجاعه؟!..

وإذا كان يسوع لا يحررنا من ذلّ الاستعمار فما الفائدة من كل الآيات والمعجزات التي أجراها. صحيح أنه أشبع الجوعي، وشفي المرضي، وأقام

الموتي، لكن ما الفائدة من كل هذا إذا لم يمنحنا الحرية وحياة الكرامة؟!..

لهذا كانت الصيحة "ارحمنا يا ابن داود" تتردد في كل أنحاء اليهودية، حاملة معها معاني كثيرة أكثر إلحاحاً من مجرد طلب الشفاء أو الكساء أو الغذاء... وكان لسان حال الشعب البائس يقول "يا رجاء إسرائيل مخلّصه في زمان الضيق لماذا تكون كغريب في الأرض وكمسافر يميل ليبيت. لماذا تكون كإنسان قد تحير كجبار لا يستطيع أن يخلّص" (إرميا ١٤:٨ و٩).

لماذا !!...

الأسئلة الخبيثة

هل أنتِ هو المسيح؟!.. كان هذا السؤال تردده جموع المحبين الذين اشتاقوا أن يزدادوا حباً، وحشود المعجبين الذين أرادوا أن يزدادوا فهماً وإعجاباً، وجمهور المؤمنين الذين أرادوا أن يزدادوا رسوخاً وثقة و إيماناً...

كان الرب يسوع بخاصيته العجيبة الفريدة يستحوذ علي مشاعر الجماهير، لكن مع ذلك فإن الجماهير لم تكن قد تعرفت علي حقيقة شخصه. كان هناك غموض شديد يحيط بالسيد المسيح، وكثيراً ما تكلم بأشياء عسرة لم يستطيعوا أن يستوعبوها، ومع ذلك كانوا في بساطة تامة يتبعونه. لهذا كان هذا السؤال قائماً يطرحه الأحباء، وكثيراً ما ردده أيضاً الأعداء بطريقة خبيثة ملتوية لاستفزاز يسوع حتي يوقعوه في شباكهم. ولقد تنبأ بهذا سمعان الشيخ عندما قال بعد أن رأي الطفل يسوع "إن هذا قد

وضع لسقوط وقيام كثيرين في إسرائيل ولعلامة تقاوم" (لو ٢:٣٤). ولقد كان لابد أن يثير الرب يسوع الأعداء حوله، ذلك لأن مجيء السيد قد أذَّن بسقوط العهد البائد وكل من يساندونه. لذا كان لابد وأن يكون السيد هو العلامة التي يصوب إليها كل الأعداء السهام...

وهكذا أخذ الأعداء يسألون يسوع نفس السؤال بطريقة ملتوية حتي يمسكوه بكلمة. "وفي أحد تلك الأيام إذ كان يعلِّم الشعب في الهيكل ويبشر، وقف رؤساء الكهنة والكتبة مع الشيوخ وكلموه قائلين قل لنا بأي سلطان تفعل هذا. أو من هو الذي أعطاك هذا السلطان" (لوقا ٢٠:١ و٢). لكن هل كان اليهود محتاجين حقاً لمن يعرفهم بأي سلطان كان يسوع يفعل كل هذه المعجزات وما هو مصدر تلك القوة العجيبة التي بها كان يصنع الخير ويشبع الجياع ويشفي المرضي ويقيم الموتي؟!..

وفي مرة أخري "قدم إليه الكتبة والفريسيون امرأة أمسكت في زنا. ولما أقاموها في الوسط قالوا له يا معلم هذه المرأة أمسكت وهي تزني في ذات الفعل. وموسي في الناموس أوصانا أن مثل هذه ترجم. فماذا تقول أنت. قالوا هذا ليجربوه لكي يكون لهم ما يشتكون به عليه. وأما يسوع فانحني إلي أسفل وكان يكتب باصبعه علي الأرض. ولما استمروا يسألونه انتصب وقال لهم من كان منكم بلا خطية فليرمها أولاً بحجر" (يو ٨:٣-٧).

وفي موضع آخر جاءه جمع من الصدوقيين قائلين "يا معلم قال موسي إن مات أحد وليس له أولاد يتزوج أخوه بامرأته ويقيم نسلاً لأخيه. فكان عندنا

سبعه إخوة وتزوج الأول ومات، وإذا لم يكن له نسل ترك امرأته لأخيه. وكذلك الثاني والثالث إلي السبعة وآخر الكل ماتت المرأة أيضاً. ففي القيامة لمن من السبعة تكون زوجة فإنها كانت للجميع. فأجاب يسوع وقال لهم تضلون إذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الله، لأنهم في القيامة لا يزوجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله في السماء" (مت ٢٢:٢٤-٣٠).

وفي موضع آخر "ذهب الفريسيون وتشاوروا لكي يصطادوه بكلمة. فأرسلوا إليه تلاميذهم مع الهيرودسيين قائلين يا معلم نعلم أنك صادق وتعلّم طريق الله بالحق ولا تبالي بأحد لأنك لا تنظر إلي وجوه الناس. فقل لنا ماذا تظن. أيجوز أن تعطي جزية لقيصر أم لا. فعلم يسوع خبثهم وقال لماذا تجربونني يا مراؤون. أروني معاملة الجزية. فقدموا له ديناراً. فقال لهم لمن هذه الصورة والكتابة. قالوا له لقيصر. فقال لهم اعطوا إذاً ما لقيصر لقيصر وما لله لله" (مت ٢٢:١٥-٢٢).

كانت أسئلة اليهود الخبيثة قد صيغت بطريقة ماكرة حتي يدفعوا بيسوع دفعاً في مواجهة ليست معهم بل مع الناموس. فهل يمكن ليسوع أن يشفي المرضي في يوم السبت؟... وهل يقدر كمحب العشارين والخطاة أن يدافع عن المرأة الزانية؟... وهل يمكن لملك اليهود أن يدفع جزية لقيصر؟...

إنها مواجهة قاسية كان لابد، حسب اعتقادهم، أن يكتب له الفشل فيها. لكن يسوع في إجابته كان يكشف لهم عن روح الناموس والأنبياء "إني أريد رحمة لا ذبيحة" (مت ٩:١٣). ومن هذا المنطلق قال لهم "السبت

إنما جعل لأجل الإنسان لا الإنسان لأجل السبت" (مر ٢:٢٧).

لقد صحق اليهود عندما سمعوا هذا الكلام وما كانوا ليصدقوا أن هناك إنسان ما يجرؤ أن يتكلم بهذا الكلام. لكن يسوع يستطرد قائلاً "إن ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً" (مت ١٢:٨) "لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس والأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل" (مت ٥:١٧).

ولو أن اليهود أرادوا أن يعرفوا من هو يسوع الناصري ما كانوا في احتياج لكل هذه الأسئلة العقيمة الخبيثة، ولسجدوا خشعاً لذلك الذي قال عنه يوحنا "والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً" (يو ١:١٤) لكن هذا الشعب الذي تقسي قلبه حق فيه القول "لأن قلب هذا الشعب قد غلظ. وآذانهم قد ثقل سمعها وغمضوا عيونهم لئلا يبصروا بعيونهم ويسمعوا بآذانهم ويفهموا بقلوبهم ويرجعوا فأشفيهم" (مت ١٣:١٥).

لكن قمة الإثارة جاءت عندما كشف السيد لهم عن حقيقة شخصه. فلم يكن هناك داعٍ لكل هذه الأسئلة الخبيثة. فبعد طول حوار ونقاش عن حقيقة شخصه قال السيد لهم بكل جرأة ووضوح "أنا والآب واحد. فتناول اليهود أيضاً حجارة ليرجموه" (يو ١٠:٣٠ و ٣١).

هذه قمة الإعلانات المثيرة التي أطلقها يسوع ليكشف عن حقيقة نفسه. وقد كانت هذه الإعلانات هي التي جعلت رئيس الكهنة يمزق ثيابه. "فأجاب رئيس الكهنة وقال أستحلفك بالله الحي أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله

المبارك فقال يسوع أنت قلت وأيضاً أقول لكم من الآن تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة وآتياً علي سحاب السماء. فمزق رئيس الكهنة حينئذ ثيابه قائلاً قد جدف، ما حاجتنا بعد إلي شهود. ها قد سمعتم تجديفه ماذا ترون فأجابوا وقالوا إنه مستوجب الموت" (مت ٢٦:٦٣-٦٦). وفي موضع آخر ذكر الكتاب "فسأله رئيس الكهنة أيضاً وقال له أأنت المسيح ابن المبارك فقال يسوع أنا هو" (مر ١٤:٦١ و٦٢).

ولا شك أنه من الواجب أن نسجل هنا، أنه إذا كان رئيس الكهنة قد وجه للسيد هذا السؤال وهو في نهاية الطريق، فإن الشيطان كان قد وجه له نفس السؤال وهو في بدايته. ومن الواضح أنه لم يكن هدف كل منهم الإيمان به بل إسقاطه والقضاء عليه!!..

ففي بداية رحلته أصعد السيد بالروح إلي البرية ليجرب من إبليس. "فبعد أن صام أربعين نهاراً وأربعين ليلة جاع أخيراً. فتقدم إليه المجرب وقال له إن كنت ابن الله فقل أن تصير الحجارة خبزاً. فأجاب وقال ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله" (مت ٤:٢-٤).

كان الشيطان يعرف السيد حق المعرفة لكنه بسؤاله هذا إنما كان يستدرجه ليستغل قوته في إشباع رغبات جسده. وهكذا أراد من أول الطريق أن يدعوه للهروب من طريق الألم. وكأني به كان يقول له، هل أنت هو المسيح، إذاً لماذا ترضي لنفسك أن تعيش في فقر وجوع، وأن يحل بك الهزء والألم؟.. ولماذا تسير بإصرار في هذا الطريق لتشرب في نهايته كأساً

مريراً من العذاب والأهوال؟.. لماذا؟..

كانت الأسئلة الخبيثة تأتي من الشيطان علي طول الطريق من البرية حتي جثسيماني. وفوق الصليب، كانت أهوال الآلام التي لاقاها السيد هناك قد جعلت المناخ ملائماً ليصوب له الشيطان أقسي سهام الشكوك داعياً إياه للهروب والنزول من فوق الصليب. وجاءت هذه السهام علي فم اللص عندما ناداه قائلاً "إن كنت أنت المسيح فخلص نفسك وإيانا" (لو ٢٣:٣٩).

لكن الرب يسوع، صمد أمام كل أمواج الشكوك وسار علي طريق الشوك والألم حتي النهاية...

القضية العظمي

"أأنت هو المسيح؟" كان هذا السؤال يردده الأحباء والأعداء علي السواء، وإن اختلفت الدوافع والأهداف. وكانت إجابة الرب يسوع لجميعهم واحدة وواضحة وصريحة..

فبعد أن زج بيوحنا المعمدان في السجن، أرسل اثنين من تلاميذه إلي السيد "وقال هل أنت هو الآتي أم ننتظر آخر. فأجاب يسوع وقال لهما اذهبا وأخبرا يوحنا بما تسمعان وتنظران. العمي يبصرون والعرج يمشون والبرص يطهرون والصم يسمعون والموتي يقومون والمساكين يبشرون وطوبي لمن لا يعثر في" (مت ١١:٣-٦).

وفي قصة المولود أعمي ثارت مناقشة حامية بين ذلك الشخص الذي فتح

يسوع عينيه وبين اليهود. في حنق قال الفريسيون عن يسوع "هذا الإنسان ليس من الله لأنه لا يحفظ السبت" (يو ٩:١٦)، وهنا أجابهم المولود أعمي قائلاً "لو لم يكن هذا من الله لم يقدر أن يفعل شيئاً" (يو ٩:٣٣).

لم يكن الرب يسوع قد كشف عن حقيقة شخصه لذلك المولود أعمي بعد، ومع ذلك هكذا كانت إجابته لليهود. "فسمع يسوع أنهم أخرجوه خارجاً فوجده وقال له أتؤمن بابن الله. أجاب ذاك وقال من هو يا سيد لأؤمن به فقال له يسوع قد رأيته والذي يتكلم معك هو هو. فقال أؤمن يا سيد وسجد له" (يو ٩:٣٥-٣٨).

عندما انفتحت عينا ذلك الشاب، لم يدرك حقيقة الذي شفاه وظن أنه مجرد نبي. لذا عندما استجوبه اليهود قائلين: "ماذا تقول أنت عنه من حيث أنه فتح عينيك. فقال إنه نبي" (يو ٩:١٧). لكن السيد لم يكتف بهذا فذهب إليه وكشف له عن حقيقة ذاته.

وهكذا كان الحال أيضاً مع التلاميذ. لم تكن معرفتهم بالسيد معرفة كاملة، وكان السيد بإصرار يكشف لهم عن حقيقة نفسه علي طول الطريق.

ففي مرة سأله فيلبس قائلاً "ياسيد أرنا الآب وكفانا. قال له يسوع أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس. الذي رآني فقد رأي الآب" (يو ١٤:٨ و٩).

وفي مرة أخري سأل السيد تلاميذه قائلاً: "من يقول الناس إني أنا ابن

الإنسان. فقالوا قوم يوحنا المعمدان. وآخرون إيليا وآخرون إرميا أو واحد من الأنبياء. قال لهم وأنتم من تقولون إني أنا. فأجاب سمعان بطرس وقال أنت هو المسيح ابن الله الحي. فأجاب يسوع وقال له طوبي لك يا سمعان بن يونا إن لحماً ودماً لم يعلن لك لكن أبي الذي في السموات" (مت ١٦:١٣-١٧).

كانت إجابة يسوع واضحة للأحباء وكذلك أيضاً للأعداء (فقالوا له: "من أنت؟" فقال لهم يسوع: "أنا من البدء ما أكلمكم أيضاً به"). (يو ٨:٢٥). وفي موضع آخر التف حوله اليهود "وقالوا له إلي متي تعلق أنفسنا. إن كنت أنت المسيح فقل لنا جهراً. أجابهم يسوع إني قلت لكم ولستم تؤمنون. الأعمال التي أنا أعملها باسم أبي هي تشهد لي" (يو ١٠:٢٤ و٢٥).

وعندما ألقوا القبض علي يسوع، كانت هذه هي القضية الرئيسية التي كانت تشغل بال رئيس الكهنة. لهذا سأله مواجهة "أأنت المسيح ابن المبارك؟ فقال يسوع أنا هو" (مر ١٤:٦١ و٦٢). بكل جرأة وبكل وضوح قال "أنا هو"...

هذه إذاً هي القضية العظمي: هل يسوع الناصري هو المسيح ابن الله؟!.. ولقد كانت هذه هي القضية العظمي التي شغلت العالم بكل طبقاته في ذلك الوقت، حتي الأميين والوثنيين. فلقد كان هيرودس يشتاق أن يراه، أما بيلاطس فتملكه الخوف وقت محاكمته له!!.. لكن وإن كانت هذه القضية قد طرحت نفسها علي العالم بالأمس فهي مازالت تفرض نفسها علي العالم كله وعلي كل الناس اليوم وكل يوم..

والقضية اليوم ليست خاصة بيسوع، فلقد حوكم يسوع ونفذ الأعداء فيه قصدهم. لكنها مع ذلك قضية خاصة وهامة جداً بالنسبة للإنسان ولكل إنسان، لأنه إن كان يسوع هو ابن الله كما قال، فلابد أن يكون للإنسان موقف منه، سواء أراد أم لم يرد، وسواء عرف أم لم يعرف.

ومن الواضح أن السيد نفسه هو الذي أثار هذه القضية المثيرة. فلم يكن هدف يسوع هو مجرد أن يريح التعابي، ويشفي المرضي، ويطعم الجوعي، لكن الهدف الأسمي من حياته كان أن يشهد عن نفسه وعن حقيقة الآب الذي أرسله. وفي صلاته الشفاعية قال "وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته" (يو ١٧:٣).

ولقد كان من اللازم أن يثير يسوع بنفسه هذه القضية، وإلا بقي يسوع في نظر العالم كأنه مجرد نبي أو مصلح اجتماعي أو معلم صالح. لذا كان يسوع بكل إلحاح وبكل طريقة يكشف عن حقيقة نفسه لكل الناس وفي كل مكان. وفي نهاية الطريق قال لبيلاطس "لهذا قد ولدت أنا ولهذا قد أتيت إلي العالم لأشهد للحق" (يو ١٨:٣٧). ولقد تمسك السيد بهذا الهدف العظيم مع إنه كان يحس بالأخطار التي كان يواجهها ويعرف الثمن الفادح الذي سيدفعه في النهاية.

كان السيد يري من البداية الصليب الرهيب الذي أعده له الأعداء. وبدون شك فإن حدث صلبه وإن كان قد تأخر لبضع سنوات، إنما كان لأن يسوع نفسه هو الذي حدد الميعاد!!..

"ولم يمسكه أحد لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد" (يو ٨: ٢٠).

"فطلبوا أن يمسكوه ولم يلق أحد يداً عليه لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد" (يو ٧: ٣٠).

"فطلبوا أيضاً أن يمسكوه فخرج من أيديهم" (يو ١٠:٣٩).

"فرفعوا حجارة ليرجموه. أما يسوع فاختفي وخرج من الهيكل مجتازاً في وسطهم ومضي هكذا" (يو ٨:٥٩).

"فامتلأ غضباً جميع الذين في المجمع حين سمعوا هذا فقاموا وأخرجوه خارج المدينة وجاءوا به إلي حافة الجبل الذي كانت مدينتهم مبنية عليه حتي يطرحوه إلي أسفل، أما هو فجاز في وسطهم ومضي" (لو ٤:٢٨-٣٠).

من كل هذا تتضح شدة المقاومة التي واجهها يسوع، لكنه بالرغم من كل ذلك ظل متمسكاً بالهدف العظيم الذي جاء من أجله. وهكذا ظل يسوع ينادي بشجاعة، لم يرهب أحداً، مع أنه كان يدرك مقدار الثورة العارمة التي كانت مشتعلة في قلوب أعدائه. كان بقدرة عجيبة يسيطر علي الجماهير الحاقدة الهائجة وكان يسكتهم بحججه القوية.

وفي كثير من المرات عندما كان يجدهم قد وصلوا إلي قمة الغليان، كان يجتاز في وسطهم في جلال ومهابة لم يقووا علي مواجهتها...

حتي في البستان، عندما أتوا بسيوف وعصي "فخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتي عليه وقال لهم من تطلبون أجابوه يسوع الناصري. قال لهم أنا

هو.. فلما قال لهم إني أنا هو رجعوا إلي الوراء وسقطوا علي الأرض" (يو ١٨:٤ و٥ و٦).

لقد كان الوحي حريصاً أن يسجل هذا الموقف الرائع الذي اتخذه السيد قبل أن يسلم نفسه. كان السيد مجيداً ومهيباً جداً. كان دائماً في موقف القوة والعظمة. لم يمسكوه وهو في حالة من الخوف والانهيار. ولم يقبضوا عليه لأنهم تكاثروا عليه.

لكن السيد هو الذي أقام الأعداء من علي الأرض ليسلم لهم نفسه!!.. أليس هذا شيئاً عجيباً حقاً؟!...

إذاً، لقد كانت هذه هي الخاتمة التي سعي إليها يسوع بإرادته، وكانت هذه هي أيضاً النهاية التي أرادها له الأعداء. في هذا الأمر الواحد فقط اتفقت إرادة السيد مع إرادة الأعداء، بالرغم من التباين والتناقض التام في الأهداف..

ثلاث سنوات ونيف مضت علي نداء يسوع دون أن يقدر الأعداء أن يمسكوه أو أن يقضوا عليه، وهذا يكشف لنا عن قوة وحكمة وعظمة السيد، الذي استطاع وهو أعزل ووحيد أن يقف أمام شراسة الأعداء وخبثهم ومكرهم وسخطهم. لكن السيد، في بساطة ووداعة ومحبة وثقة، سار بكل هدوء في طريقه. كانت صيحته "أنا هو" تهز الأعداء وتزيدهم غضباً وانفعالاً، كما كانت هذه الصيحة نفسها تستحوذ علي قلوب وعقول الأحباء والأصدقاء وتزيدهم غبطة وابتهاجاً...

ومن العجيب أن هذه القضية أثارت ومازالت تثير الحيرة والغضب والانفعال. ولو أن الرب يسوع أتي إلي عالمنا اليوم، لواجه نفس المصير الذي واجهه من قبل، والسبب هو سوء الفهم والغشاوة السميكة التي غطت ومازالت تغطي أعين الناس...

"فتناول اليهود أيضاً حجارة ليرجموه. أجابهم يسوع أعمالاً كثيرة حسنة أريتكم من عند أبي بسبب أي عمل منها ترجمونني. أجابه اليهود قائلين لسنا نرجمك لأجل عمل حسن بل لأجل تجديف. فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً" (يو ١٠ :٣١-٣٣).

لقد ظن اليهود أن الرب يسوع هو مجرد إنسان يدّعي لنفسه الألوهية. من أجل هذا مزق رئيس الكهنة ثيابه وقال قد جدف، وقال الجميع إنه مستوجب الموت.

من أجل هذا كان اليهود يهاجمون يسوع ويسيئون إليه، ويقولون إنه به شيطان وإنه المضل ومختل العقل. فإنه لا يعقل أن أي إنسان سَوي يدّعي لنفسه الألوهية، إذ أن هذا سيقوده حتماً إلي الموت. فلقد كانت هذه وصية الله المشددة لشعبه. فلقد حذر الرب بني إسرائيل قائلاً: "إذا قام وسطك نبي أو حالم حلماً وأعطاك آية أو أعجوبة ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التي كلمك عنها قائلاً لنذهب وراء آلهة أخري لم تعرفها وتعبدها. فلا تسمع لكلام ذلك النبي أو الحالم ذلك الحلم لأن الرب إلهكم يمتحنكم لكي يعلم هل تحبون الرب إلهكم من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم. وراء الرب إلهكم

تسيرون وإياه تتقون ووصاياه تحفظون وصوته تسمعون وإياه تعبدون وبه تلتصقون. وذلك النبي أو الحالم ذلك الحلم يقتل لأنه تكلم بالزيغ من وراء الرب إلهكم الذي أخرجكم من أرض مصر وفداكم من بيت العبودية لكي يطوحكم عن الطريق التي أمركم الرب إلهكم أن تسلكوا فيها. فتنزعو الشر من بينكم" (تث ١٣:١-٥).

إذاً، لو أن يسوع كان مجرد إنساناً ادّعي لنفسه الألوهية لحق لليهود أن يفتكوا به ويقتلوه. لكن الرب يسوع لم يكن كذلك بل كان هو الله الذي ظهر في الجسد الذي يستحق كل الإكرام والسجود والتعبد..

هذا هو جوهر هذه القضية العظمي التي كابد من أجلها يسوع كل الآلام والمخاطر ورفع بسببها فوق الصليب.

لم يكن يسوع مجرد إنساناً ادّعي لنفسه الألوهية، بل كان هو حقاً كما قال "ابن الله" الذي جاء في الجسد.. لكن وإن كان كذلك فهل هناك ما يثبت هذه الحقيقة الهامة؟!...

وقبل أن نجيب علي هذا السؤال الهام يحق لنا أن نتساءل، لماذا؟.. لماذا أثار الرب يسوع هذه القضية العظمي؟.. ما الفائدة منها وما قيمة هذه القضية بالنسبة له وبالنسبة أيضاً للإنسان؟.. ويجيب الرب يسوع علي هذا السؤال قائلاً "لأنكم إن لم تؤمنوا إني أنا هو تموتون في خطاياكم" (يو ٨:٢٤).

لم يكن الهدف إذاً هو الاستعلاء أو استعراض القوة أو إحراز أي مجد رخيص. السر هو أن السيد أراد أن يخلص الإنسان من أسر الخطية ويقوده إلي حرية مجد أولاد الله.

لقد عاش اليهود علي الرجاء أنه عندما يأتي المسيا فإنه سيخلصهم من الأعداء، لكن المسيا كانت له أهداف أخري أسمي وأعظم. كان هدف المسيا أن يعتق الإنسان من أسر الخطية... وكان الرب يسوع يدرك أنه ما من شخص، مهما كان، يستطيع أن يعطي الإنسان هذه الحرية غيره..

فقد قال داود النبي "لأن عندك المغفرة لكي يخاف منك" (مز ١٣٠:٤) وعندما سقط في خطيته الشنعاء صرخ قائلاً: "ارحمني يا الله حسب رحمتك. حسب كثرة رأفتك امح معاصي. اغسلني كثيراً من اثمي ومن خطيتي طهرني" (مز ٥١:١ و٢). ولقد كانت هذه هي صرخة جميع الأنبياء، فقال بولس الرسول "صادقة هي الكلمة ومستحقة كل قبول أن المسيح يسوع جاء إلي العالم ليخلص الخطاة الذين أولهم أنا" (١تي ١:١٥).

من هنا يتضح لماذا أراد السيد أن يؤكد للعالم أنه ليس مجرد نبي. لقد كان الإنسان محتاجاً لما هو أعظم من ذلك بكثير "فرأي أنه ليس إنسان وتحير أنه ليس شفيع. فخلصت ذراعه لنفسه وبره هو عضده." (إش ٥٩:١٦).

لكن إن كان يسوع الناصري هو المسيح، ابن الله، هل كان هناك ما يؤكد هذه الحقيقة الهامة؟...

الفصل الثاني

«ثقوا أنا هو»

عندما أتي الرب يسوع إلي عالمنا فجَّر وجوده هذه القضية العظمي.. وكانت الجماهير في حيرة تتساءل وتقول له "هل أنت هو المسيح؟.." وكان الرب يسوع يجيب بكل وضوح قائلاً ومؤكداً: "ثقوا أنا هو.." (مر ٦: ٥٠). وكانت إجابته هذه تلهب قلوب الأحباء، وتشعل الثورة في قلوب الأعداء.

لكن السيد لم يعط ظهره لمعانديه ومقاوميه، بل كان في إصرار شديد ومثابرة دائمة يعمل كيما يفتح البصائر وينير الضمائر ويجذب الجميع إليه. لذا كان يقضي الساعات الطويلة معهم ليناقش هذه القضية الهامة معتمداً في حواره هذا علي المكتوب. وفي ذروة مناقشاته قال لهم "إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي ليست حقاً.. فتشوا الكتب لأنكم تظنون أن لكم فيها حياة أبدية وهي التي تشهد لي" (يو ٥: ٣١ و٣٩).

كان المكتوب هو السلاح العظيم الذي استخدمه يسوع ليسكت معانديه ويولِّد به الإيمان في قلوب تابعيه. وفي ذروة من الغبطة والسعادة هتف فيلبس منادياً نثنائيل قائلاً: "وجدنا الذي كتب عنه موسي في الناموس والأنبياء يسوع ابن يوسف الذي من الناصرة" (يو ١: ٤٥).

لكن هل كانت هناك حقاً كتابات في الناموس والأنبياء، تشير إلي مجيء الرب يسوع وتكشف عن حقيقة شخصه؟.. نعم...

وليس هناك مبالغة إذا قلنا إن كل كلمة في الناموس إنما تشير إلي شخص الرب يسوع. وفي هذا قال رسول الأمم "لأن غاية الناموس هي المسيح للبر" (رو ١٠: ٤). فلم يكن الناموس هدفاً في ذاته بل "كان الناموس

مؤدبنا إلي المسيح لكي نتبرر بالإيمان" (غلا ٣:٢٤).

لقد كانت البشرية تحتاج إلي ذلك المؤدب الذي ينهاها عن الخطية ويقودها إلي الصلاح. وبهذا تحول الناموس إلي تلك المرآة المرعبة الرهيبة التي كشفت كل عورات البشرية وخطاياها. وفي هذا يقول الرسول "فماذا نقول. هل الناموس خطية. حاشا. بل لم أعرف الخطية إلا بالناموس. فإنني لم أعرف الشهوة لو لم يقل الناموس لا تشته" (رو ٧:٧) ويستمر الرسول ويقول "فوجدت الوصية التي للحياة هي نفسها لي للموت" (رو ٧: ١٠).

وبهذا تحول ناموس الرب الكامل إلي ناموس الدينونة، وصارت أحكام الرب الحق العادلة إلي أحكام القضاء!!.. لكن كل كلمات الناموس الكاملة وكل أحكام القضاء القاسية كانت جميعها تشير إلي "الكامل" الذي كان ليجيء في ملء الزمان ليرفع الدينونة ويرد القضاء. وفي هذا يقول يوحنا البشير "لأن الناموس بموسي أعطي أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا" (يو ١:١٧).

فبالرغم من أن موسي أحضر معه لوحي الشريعة، لكنه سرعان ما أدرك عجز رسالته وأن الإنسان يحتاج لمن يكتب هذه الشريعة علي صفحات قلبه وفي أعماق وجدانه. ومع شدة المعاناة والشعور بالإحباط كان الوحي يشع بنور الأمل والرجاء فقال "ها أيام تأتي يقول الرب وأقطع مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهداً جديداً. ليس كالعهد الذي قطعته مع آبائهم يوم أمسكتهم بيدهم لأخرجهم من أرض مصر حين نقضوا عهدي فرفضتهم يقول

الرب. بل هذا هو العهد الذي أقطعه مع بيت إسرائيل بعد تلك الأيام يقول الرب. أجعل شريعتي في داخلهم وأكتبها علي قلوبهم وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً" (إر ٣١:٣١-٣٣).

لقد كان الأنبياء جميعهم يشعرون بعجزهم وقصور رسالتهم. وفي هذا يقول كاتب سفر العبرانيين: "لأنه لو كان يشوع قد أراحهم لما تكلم بعد ذلك عن يوم آخر" (عب ٤:٨). وهكذا لم يقدر موسي أو يشوع أو داود أو سليمان أو أي إنسان آخر أن يريح شعب الله ويخلّصهم من خطاياهم. إنما الذي استطاع أن يريح الإنسان هو الذي دفع الثمن علي الصليب، فنادي عن جدارة وفي صدق "تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم" (مت ١١:٢٨).

كان رجال الله في عجزهم يحلمون، لكنهم فجأة وجدوا أحلامهم تتحقق.. فجأة أدركوا أن الذي يحلمون به يعيش في وسطهم.. نعم، لأنه وإن كانت أنهار النعمة لم تتفجر إلا فوق صخرة الجلجثة، لكن النعمة كانت موجودة منذ القديم. ويؤكد الرسول هذا عندما قال "وجميعهم شربوا شراباً واحداً روحياً. لأنهم كانوا يشربون من صخرة روحية تابعتهم والصخرة كانت المسيح" (١ كو ١٠:٤).

إذاً لقد كان الرب يسوع موجوداً فعلاً مع شعبه منذ القديم. وإن كان رجال الله الأتقياء قد كتبوا عنه فإنهم قد كتبوا عن شخص حي يهيمن علي عقولهم وأرواحهم. وعندما كتب الرسول يوحنا قائلاً: "الذي كان من البدء

الذي سمعناه الذي رأيناه بعيوننا الذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة" (١يو ١:١).

فإن هذا يصدق علي أناس كثيرين عاشوا في القديم.. ألم يكن الرب يسوع هو الملاك الذي ظهر لموسي في العليقة؟!.. (أع ٧:٣٥). والملاك الذي كان مع الكينسة في البرية؟! (أع ٧:٣٨).. ألم يروا يسوع في عمود السحاب نهاراً وعمود النار ليلاً؟.. ألم يحسوا بوجوده عندما اجتازوا البحر وعندما واجهوا العمالقة؟!.. ألم يذوقوا حلاوته عندما أطعمهم المن في البرية؟!...

نعم.. نعم.. لقد تفجرت أنهار النعمة في القديم لأنها أنهار موجودة منذ الأزل. لقد كان الرب يسوع هو الصخرة التي تابعتهم في كل ظروف الحياة بحلوها ومرها.. ولقد كان هو الصخرة التي كانت دائماً تتفجر بالمياه، سواء تحدثوا إليها أو ضربوها، وسواء أكرموها أو أهانوها.. كان هو الصخرة التي تابعتهم والتي حمتهم وحملتهم وأروتهم وأشبعتهم... كان هو الصخر الذي فجر في داخلهم ينابيع فائضة من التسابيح والتعزيات. ولقد تهلل قلب موسي فهتف قائلاً: "إني باسم الرب أنادي. اعطوا عظمة لإلهنا. هو الصخر الكامل صنيعه. إن جميع سبله عدل. إله أمانة لا جور فيه. صدِّيق وعادل هو" (تث ٣٢:٣و٤).

لقد كان "روح المسيح" (١بط ١:١١) يهيمن علي كل العالم منذ القديم، ويكشف نفسه لمختاريه بطرق مختلفة، وشهد علي لسان الأنبياء عن "الآلام

التي للمسيح والأمجاد التي بعدها" (١ بط ١:١١). وقد أكد الرب يسوع هذه الحقيقة لليهود عندما قال: "أبوكم إبراهيم تهلل بأن يري يومي فرأي وفرح" (يو ٨:٥٦).

كان "روح المسيح" يلهب القلوب ويشع بالأمل في النفوس ويكشف عن سر الأزل وعن "مسح قدوس القدوسين" (دانيال ٩:٢٤). وهكذا أخذت النبوات تتوالي لتشجع الساكنين في الظلمة وظلال الموت قائلة: "ابتهجي جداً يا ابنة صهيون اهتفي يا بنت أورشليم. هوذا ملكك يأتي إليك هو عادل ومنصور وديع وراكب علي حمار وعلي جحش ابن أتان. وأقطع المركبة من أفرايم والفرس من أورشليم وتقطع قوس الحرب. ويتكلم بالسلام للأمم وسلطانه من البحر إلي البحر ومن النهر إلي أقاصي الأرض" (زك ٩:٩ و١٠).

وبنفس النغمة المبهجة المفرحة قال إشعياء: "لأنه يولد لنا ولد ونعطي ابناً وتكون الرياسة علي كتفه ويدعي اسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أبا أبدياً رئيس السلام" (إش ٩:٦).

"كراع يرعي قطيعه. بذراعه يجمع الحملان وفي حضنه يحملها ويقود المرضعات" (إش ٤٠:١١).

ويستمر إشعياء ليحدث شعبه عن ذلك الملك والفادي والمخلص قائلاً "هوذا عبدي الذي أعضده مختاري الذي سرت به نفسي. وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم. لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته.

قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة خامدة لا يطفيء. إلي الأمان يخرج الحق. لا يكل ولا ينكسر حتي يضع الحق في الأرض وتنتظر الجزائر شريعته" (إش ٤٢:١-٤).

"لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها ونحن حسبناه مصاباً مضروباً من الله ومذلولاً. وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا تأديب سلامنا عليه وبحبره شفينا. كلنا كغنم ضللنا ملنا كل واحد إلي طريقه والرب وضع عليه إثم جميعنا. ظلم أما هو فتذلل ولم يفتح فاه كشاة تساق إلي الذبح وكنعجة صامتة أمام جازيها فلم يفتح فاه. من الضغطة ومن الدينونة أخذ. وفي جيله من كان يظن أنه قطع من أرض الأحياء. ضرب من أجل ذنب شعبي. وجعل مع الأشرار قبره ومع غني عند موته. علي أنه لم يعمل ظلماً ولم يكن في فمه غش.. وهو حمل خطية كثيرين وشفع في المذنبين" (إش ٥٣:٤-٩ و١٢).

وعندما دخل الرب يسوع المجمع فتح السفر حيث كان مكتوباً فيه "روح الرب علي لأنه مسحني لأبشر المساكين أرسلني لأشفي المنكسري القلوب لأنادي للمأسورين بالإطلاق وللعمي بالبصر وأرسل المنسحقين في الحرية وأكرز بسنة الرب المقبولة. ثم طوي السفر وسلمه إلي الخادم وجلس وجميع الذين في المجمع كانت عيونهم شاخصة إليه. فابتدأ يقول لهم إنه اليوم قد تم هذا المكتوب في مسامعكم" (لو ٤:١٧-٢١).

وبعد، فإننا في هذه العجالة القصيرة لا يمكننا أن نقتبس أو نسجل كل

ما كتب عن الرب يسوع في الناموس والأنبياء. لكننا نقف في ذهول أمام هذه الحقيقة الفريدة عندما ندرك أن تفاصيل ولادة وموت وقيامة الرب يسوع قد ذكرت بإسهاب في العهد القديم، بل كان التركيز الأهم علي شخصيته وهدف حياته. وبكل هذا فإن الرب يسوع يقف فريداً وسط العالم كله..

لكننا يجب أن نعلم أنه بالرغم من كل ما كُتب عن الرب يسوع في القديم، فإن كل هذه لم تكن إلا أشعة نجوم ساطعة وسط الظلمة الحالكة. كانت مجرد أشعة هادية تبعث بالأمل والرجاء، حتي طلعت شمس البر، وهنا إذا بالنجوم تختفي...

فما كان الرب يسوع ليبرهن علي حقيقة شخصه بمجرد أقوال قيلت عنه في القديم. لقد لجأ يسوع إلي سلاح المكتوب ليكشف عن الجذور القديمة لكنه في الوقت نفسه أراد أن يؤسس الإيمان به علي ما هو أعظم من المكتوب. فالكلمات يمكن أن تؤوّل معانيها ويحوّر مضمونها، فالحرب الروحية مستمرة منذ بدء الخليقة، وعدو الخير لا يهدأ ولا يكف عن أن يثير الزوابع الذهنية الشرسة، حتي يشوه الحقائق ويضلل الشعوب.

لذا، كان لابد وأن يؤسس الرب يسوع حقيقة الإيمان به ليس علي المكتوب فقط بل علي ما هو أعظم من ذلك بكثير.. علي حقيقة شخصه...

لكن كيف بدا يسوع عندما أتي إلي عالمنا ؟!..

كان داود يري أن يسوع سيأتي إلي العالم كملك فقال بابتهاج: "ارفعن

أيتها الأرتاج رؤوسكن وارتفعن أيتها الأبواب الدهريات فيدخل ملك المجد" (مز ٢٤:٧). نعم كانت هناك أشواق جارفة لأن يأتي الملك وتفتح له الأبواب الدهرية ويقدم الرب للعالم وسط التهاليل والترانيم والهتاف وأصوات البوق. لكن عندما أتي الرب يسوع لم يحدث شيء من هذا. لقد قدمه بيلاطس لليهود قائلاً: "هوذا ملككم" (يو ١٩:١٥) وكان يسوع في ذلك الوقت مكللاً بالشوك لابساً ثوب أرجوان. وبتاج من شوك وبثوب من أرجوان كان يسوع في كل خطوة مشاها يؤكد أنه ملك الملوك ورب الأرباب..

"أولاً: إلهاً قديراً"

هنا يحلو لنا أن نردد مرة أخري نبوّة إشعياء النبي عن مجيء الرب يسوع عندما قال "لأنه يولد لنا ولد ونعطي ابناً وتكون الرياسة علي كتفه ويدعي اسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أباً أبدياً رئيس السلام" (إش ٩:٦).

هنا تحدث إشعياء بكل جلاء عن تجسد المسيح. وفي الواقع لم يكن ذهن اليهود خالياً تماماً عن هذا الأمر. فقد ظهر الله في القديم عدة مرات في هيئة إنسان (تك ١٨ ، قض ١٣). كما ظهر في هيئآت مختلفة، لكن إشعياء تنبأ هنا قائلاً: "إنه في ملء الزمان سوف يتم هذا التجسد ويأتي لنا الله في هيئة ولد. نعم سيأتي كولد لكن هذا الولد سيكون في حقيقته الإله القدير!!..

ولقد كانت المقدرة العجيبة هي العلامة المميزة التي تكشف وتؤكد حقيقة

وجود الله. فعندما ظهر الله لإبراهيم قال له "أنا الله القدير سر أمامي وكن كاملاً" (تك ١٧ : ١). وعندما ظهر أيضاً ليعقوب قال له "أنا الله القدير.." (تك ٣٥ : ١١). وعلي طول الطريق كان الله يؤكد وجوده لبني إسرائيل بقدرته العجيبة. فهو الذي أخرجهم من أرض مصر بيد رفيعة، وهو الذي حملهم في البرية علي "أجنحة النسور". (خر ١٩ : ٤).

وكان الله دائماً يذكر شعبه بقدرته العجيبة هذه مؤكداً: "أن الرب إلهكم هو إله الآلهة ورب الأرباب الإله العظيم الجبار المهيب" (تث ١٠ : ١٧). وقال عنه أيوب: "المزحزح الجبال ولا تعلم. الذي يقلبها في غضبه. المزعزع الأرض من مقرها فتتزلزل أعمدتها. الآمر الشمس فلا تشرق ويختم علي النجوم. الباسط السموات وحده والماشي علي أعالي البحار. صانع النعش والجبار والثريا ومخادع الجنوب. فاعل عظائم لا تفحص وعجائب لا تعد" (أي ٩ : ٥ - ١٠).

هذه إذاً الصفة البارزة والعلامة الجوهرية لوجود الله. إنه إله عظيم كلي القدرة لا يعسر عليه أمر. وهنا ينبغي أن نتساءل، إن كان يسوع الناصري هو بالحقيقة الله الذي ظهر في الجسد فهل كان حقاً "إلهاً قديراً" كما قال عنه إشعياء؟!.. نعم... فلقد ذكر البشيرون كيف أن الرب يسوع أسكت الأمواج الهادرة والرياح العاصفة بكلمة "فحدث نوء ريح عظيم فكانت الأمواج تضرب إلي السفينة حتي صارت تمتلئ. وكان هو في المؤخرة علي وسادة نائماً فأيقظوه وقالوا له يا معلم أما يهمك أننا نهلك؟ فقام وانتهر

الريح وقال للبحر اسكت ابكم فسكنت الريح وصار هدوء عظيم. وقال لهم ما بالكم خائفين هكذا. كيف لا إيمان لكم. فخافوا خوفاً عظيماً وقالوا بعضهم لبعض من هو هذا، فإن الريح أيضاً والبحر يطيعانه" (مر ٤:‏٣٧-٤١).

"فخافوا خوفاً عظيماً".. كان التلاميذ في رعب شديد وخوف عظيم من شدة الرياح وهيجان البحر، لكن بعد أن أسكت الرب يسوع البحر الهائج تملكهم الرعب وانتابهم الخوف أكثر من قبل ذلك لأنهم وجدوا أنفسهم فجأة أمام الله. ومن شدة خوفهم أخذوا يتساءلون "من هو هذا فإن الريح أيضاً والبحر يطيعانه"، لكنهم في أعماقهم كانوا يدركون الإجابة علي هذا السؤال..

في هذا الحادث هدأ الرب يسوع الرياح وأبكم البحر بكلمة، لكننا في مشهد آخر نراه ماشياً وسط الزوابع فوق الأمواج الهائجة. ويقول البشير مرقس "ولما صار المساء كانت السفينة في وسط البحر وهو علي البر وحده. ورآهم معذبين في الجذف لأن الريح كانت ضدهم. ونحو الهزيع الرابع من الليل أتاهم ماشياً علي البحر وأراد أن يتجاوزهم. فلما رأوه ماشياً علي البحر ظنوه خيالاً فصرخوا. لأن الجميع رأوه واضطربوا فللوقت كلمهم وقال لهم ثقوا أنا هو لا تخافوا. فصعد إليهم إلي السفينة فسكنت الريح" (مر ٦:‏٤٧-٥١).

في هذين الحدثين أظهر الرب يسوع بكل وضوح أنه السيد الكلي القدرة

الذي ليس لعظمته استقصاء. فالإنسان حتي يومنا هذا مع كثرة اختراعاته المذهلة فإنه يقف عاجزاً أمام قوي الطبيعة. فهو لا يقوي شيئاً أمام الزلازل والبراكين ولا يقدر أن يفعل شيئاً أمام العواصف والبحار الهائجة، أما الرب يسوع فإنه بكلمة أسكت البحر وهدأ الزوابع، بل رأيناه ماشياً فوق اللجج المتلاطمة، ثابتاً وسط الزوابع العاتية مؤكداً أنه الإله القدير.

"الباسط السموات وحده والماشي علي أعالي البحر" (أي ٩:٨) "فإنه هو الذي صنع الجبال وخلق الريح وأخبر الإنسان ما هو فكره، الذي يجعل الفجر ظلاماً ويمشي علي مشارف الأرض يهوه إله الجنود اسمه" (عا ٤:١٣).

كان لابد وأن تخضع الطبيعة للرب يسوع لأنه خالقها. "كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان" (يو ١:٣).

إلهاً قديراً...

ولأن السيد هو الخالق لذا فإن كل شيء عريان ومكشوف لديه. ويقول كاتب سفر العبرانيين "وليست خليقة غير ظاهرة قدامه بل كل شيء عريان ومكشوف لعيني ذلك الذي معه أمرنا" (عب ٤:١٣).

ويؤكد الكتاب تلك المقدرة العجيبة التي كانت للرب يسوع في مواقع كثيرة. ويقول البشير متي "ولما جاءوا إلي كفرناحوم تقدم الذين يأخذون الدرهمين إلي بطرس وقالوا أما يوفي معلمكم الدرهمين. قال بلي. فلما دخل البيت سبقه يسوع قائلاً ماذا تظن يا سمعان. ممن يأخذ ملوك الأرض

الجباية أو الجزية أمن بنيهم أم من الأجانب؟ قال له بطرس من الأجانب قال له يسوع فإذاً البنون أحرار. ولكن لئلا نعثرهم اذهب إلي البحر والق صنارة والسمكة التي تطلع أولاً خذها ومتي فتحت فاها تجد أستاراً فخذه وأعطهم عني وعنك" (مت ١٧:٢٤-٢٧).

وفي موضع آخر يقول البشير لوقا "وإذ كان الجمع يزدحم عليه ليسمع كلمة الله كان واقفاً عند بحيرة جنيسارت. فرأي سفينتين واقفتين عند البحيرة والصيادون قد خرجوا منهما وغسلوا الشباك. فدخل إحدي السفينتين التي كانت لسمعان وسأله أن يبعد قليلاً عن البر. ثم جلس وصار يعلّم الجموع من السفينة. ولما فرغ من الكلام قال لسمعان ابعد إلي العمق وألقوا شباككم للصيد. فأجاب سمعان وقال له يا معلم قد تعبنا الليل كله ولم نأخذ شيئاً ولكن علي كلمتك ألقي الشبكة. ولما فعلوا ذلك أمسكوا سمكاً كثيراً جداً فصارت شبكتهم تتخرق. فأشاروا إلي شركائهم الذين في السفينة الأخري أن يأتوا ويساعدوهم. فأتوا وملأوا السفينتين حتي أخذتا في الغرق. فلما رأي سمعان بطرس ذلك خرّ عند ركبتي يسوع قائلاً اخرج من سفينتي يا رب لأني رجل خاطيء" (لوقا ٥:١-٨).

إلهاً قديراً...

لقد كانت للرب يسوع هذه القدرة العجيبة الفريدة أن يري ما في الخفاء وما في أعماق البحر. لذا خرّ سمعان عند قدمي يسوع ساجداً. لكن الأعظم من هذا أن الرب يسوع كانت له المقدرة أن يعرف فكر الإنسان ونيات قلبه.

وكان يعرف أيضاً الأمور الآتية في المستقبل. وفي الكتاب مواضع كثيرة تكشف عن قدرات يسوع العجيبة هذه. فيقول متي البشير "فعلم يسوع أفكارهم" (مت ٩:٤) وكانت مقدرة يسوع المذهلة لمعرفة أفكار معانديه واضحة في كل تصرفاته معهم. فعندما شفي الرب يسوع الأعمي الأخرس "فبهت كل الجموع وقالوا ألعل هذا هو ابن داود. أما الفريسيون فلما سمعوا قالوا هذا لا يخرج الشياطين إلا ببعلزبول رئيس الشياطين. فعلم يسوع أفكارهم وقال لهم كل مملكة منقسمة علي ذاتها تخرب وكل مدينة أو بيت منقسم علي ذاته لا يثبت" (مت ١٢:٢٣-٢٥).

وفي موضع آخر يقول عن تلاميذه "وداخلهم فكر من عسي أن يكون أعظم فيهم.. فعلم يسوع فكر قلبهم وأخذ ولداً وأقامه عنده. وقال لهم من قبل هذا الولد باسمي يقبلني. ومن قبلني يقبل الذي أرسلني. لأن الأصغر فيكم جميعاً هو يكون عظيماً" (لو ٩:٤٦-٤٨).

لقد كانت للرب يسوع هذه المقدرة العظيمة لأن يري ما بأعماق البحار وأن يعرف الأمور الحاضرة والمستقبلة. وهكذا تنبأ عن إنكار بطرس وخيانة يهوذا وخراب أورشليم. وتحدث كثيراً عن موته وقيامته. علي أن الشيء الذي أثّر في التلاميذ وأصابهم بالخوف والهلع هو تلك المقدرة العجيبة في معرفة أعماق قلب الإنسان مما جعل بطرس يركع عند قدمي السيد قائلاً "اخرج من سفينتي يا رب لأني رجل خاطيء"

وكأني بالتلميذ عندما ركع عند قدمي سيده أخذ يردد ما قاله المرنم قديماً

"يا رب قد اختبرتني وعرفتني. أنت عرفت جلوسي وقيامي. فهمت فكري من بعيد. مسلكي ومربضي ذريت وكل طرقي عرفت. لأنه ليس كلمة في لساني إلا وأنت يا رب عرفتها كلها. من خلف ومن قدام حاصرتني وجعلت عليَّ يدك. عجيبة هذه المعرفة فوقي ارتفعت لا أستطيعها. أين أذهب من روحك ومن وجهك أين أهرب. إن صعدت إلي السموات فأنت هناك. وإن فرشت في الهاوية فها أنت. إن أخذت جناحي الصبح وسكنت في أقاصي البحر. فهناك أيضاً تهديني يدك وتمسكني يمينك. فقلت إنما الظلمة تغشاني. فالليل يضيء حولي. الظلمة أيضاً لا تظلم لديك والليل مثل النهار يضيء. كالظلمة هكذا النور" (مز ١٣٩:١-١٢).

إلهاً قديراً...

ونحن لا نريد أن نسجل كل المواقف التي أظهر فيها الرب يسوع قدرته الإلهية العجيبة والفريدة. لكننا نريد أن نسجل هنا أنه عندما حل بيننا ذلك الإله القدير لم يثر الفزع والهلع في قلوب البشر، لكنه علي النقيض ولَّد فيضاً من الراحة والسعادة والسلام. ذلك لأن تلك القدرة العجيبة كانت مغلفة بالرحمة، فسترت العورات التي كشفتها، وضمدت الجراح التي اكتشفتها، وهدأت القلوب التي أفزعتها. وكان علي طول الطريق يقول "روح الرب عليَّ لأنه مسحني لأبشر المساكين أرسلني لأشفي المنكسري القلوب لأنادي للمأسورين بالإطلاق وللعمي بالبصر وأرسل المنسحقين في الحرية" (لو ٤:١٨).

لكن الشيء المحير الذي أثار ومازال يثير الجدل حول شخصية الرب يسوع أن ذلك الإله القدير كثيراً ما بدا كأنه مسلوب من قوته ومغلوب علي أمره. لم يدرك العالم أن ذلك الإله القدير هو بعينه رئيس السلام، وأنه كيما يحقق الرب يسوع ذلك الهدف العظيم كان الأمر يحتاج إلي قوة أخري تفوق بكثير كل قواه الخارقة للطبيعة، إنها قوة دمه. وعندما يصف كاتب سفر العبرانيين قوة الرب يسوع يقول عنه: "إنه حامل كل الأشياء بكلمة قدرته" ويقول عنه أيضاً إنه "صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا". أي أن كل المعجزات الفائقة التي قام بها الرب يسوع إنما أجراها بكلمة. فقد أقام الموتي وشفي المرضي وهدأ البحار وأسكت العواصف، كل هذا بكلمة. لكنه عندما أراد أن يحقق السلام وأن يصنع تطهيراً لخطايا العالم كان الأمر يحتاج إلي سفك الدم وإلي بذل النفس. وبهذا السلطان وحده استطاع يسوع أن يقدم السلام للقلوب المنكسرة والغفران للنفوس الرازحة تحت حمل خطاياها. فعندما قدموا له مفلوجاً قال له الرب يسوع "مغفورة لك خطاياك" (مر ٢:٥). وهنا أخذت موجة من التذمر تسري بين الكتبة "فقال لهم لماذا تفكرون بهذا في قلوبكم. أيما أيسر أن يقال للمفلوج مغفورة لك خطاياك أم أن يقال قم واحمل سريرك وامش. ولكن لكي تعلموا أن لابن الإنسان سلطاناً علي الأرض أن يغفر الخطايا. قال للمفلوج لك أقول قم واحمل سريرك واذهب إلي بيتك فقام للوقت وحمل السرير وخرج قدام الكل حتي بهت الجميع ومجدوا الله قائلين ما رأينا مثل هذا قط" (مر ٢:٨-١٢).

لقد كان للرب يسوع سلطاناً علي الأجساد وعلي الأرواح. والشيء الذي نريد أن نبرزه هو ما جاء في سؤال الرب يسوع "أيما أيسر أن يقال للمفلوج مغفورة لك خطاياك. أم أن يقال قم واحمل سريرك وامش" ويمكن أن نعيد صياغة السؤال بطريقة أخري فنقول: "أيما أعظم أن يقال للمفلوج مغفورة لك خطاياك. أم أن يقال قم واحمل سريرك وامش". وبالمثل فإنه أيهما أعظم أن يقال عن الرب يسوع أنه حامل كل الأشياء بكلمة قدرته، أم أن يقال عنه هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم؟!.. وأيهما أعظم عندما نشاهده ماشياً فوق البحر المضطرب ووسط الرياح العاصفة، أم أن نراه ماشياً خارج المحلة حاملاً صليبه في موكب الهزء والعار؟!.. وأيهما أعظم أن نراه فوق جبل التجلي وقد تغيرت هيئته وصار وجهه يضيء كالشمس وثيابه بيضاء كالنور، أم أن نراه معلقاً فوق تلة الجلجثة وقد تغيرت هيئته بصورة أخري فقيل عنه "كان منظره كذا مفسداً.. لا صورة له ولا جمال فننظر إليه ولا منظر فنشتهيه.. وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا تأديب سلامنا عليه وبحبره شفينا". وأيهما أعظم أن نري الرب يسوع واقفاً في البستان وجنود الأعداء ساقطة أمامه علي الأرض، أم أن نراه كشاة تساق إلي الذبح وكنعجة صامتة أمام جازيها فلم يفتح فاه.. شتم أما هو فلم يشتم عوضا... ظلم أما هو فتذلل.

ومن الواضح أن كل القوي تولّد الرهبة وتبعث بالخوف، أما قوة المحبة فتولّد السلام وتبعث بالحب.. كما أن كل القوي لابد وأن تتبدد أما المحبة

فتأثيراتها خالدة خلود المحبة...

وبهذا صار الرب يسوع هو ملك المحبة علي طول الزمن. فهو الإله القدير الذي جاء إلي عالمنا ليسود علي القلوب بالحب، ويفدي العالم بالحب، ويفجّر من فوق الجلجثة قوة جديدة، قوة محيية ومطهرة، هي قوة محبته وقوة دمه. وهكذا استطاع الرب يسوع أن يغفر الخطايا وأن يقتل العداوة وأن يصنع الصلح وأن يبتلع الموت، كل هذا بقوة صليبه... إنه حقاً إله قدير رئيس السلام...

ثانياً "قدوس الله"

"من مثلك بين الآلهة يا رب. من مثلك معتزاً في القداسة مخوفاً بالتسابيح صانعاً عجائب" (خر ١٥:١١).

"الذي وحده له عدم الموت ساكناً في نور لا يدني منه. الذي لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه الذي له الكرامة والقدرة الأبدية" (١ تي ٦:١٦).

"معتزاً في القداسة.."

"ساكناً في نور لا يدني منه.."

من الواضح أنه إن كانت "القدرة الأبدية" هي صفة بارزة جوهرية من صفات الله سبحانه وتعالي، فإن القداسة هي أيضاً صفة جوهرية ومميزة له.

فعندما انفتحت عينا إشعياء رأي السيد جالساً علي كرسي عال ومرتفع وأذياله تملأ الهيكل. السرافيم واقفون فوقه لكل واحد ستة أجنحة. باثنين يغطي وجهه وباثنين يغطي رجليه وباثنين يطير. وهذا نادي ذاك وقال قدوس قدوس قدوس رب الجنود مجده ملء كل الأرض. فاهتزت أساسات العتب من صوت الصارخ وامتلأ البيت دخاناً" (إش ٦:١-٤).

هنا يبدو واضحاً أن جلال الله ومجده وعظمته ومهابته، كل هذه مرتبطة بقداسته. ومن هنا أيضاً جاءت تلك الترنيمة الحلوة التي رنمتها حشود الغالبين التي تقول "عظيمة وعجيبة هي أعمالك أيها الرب الإله القادر علي كل شيء، عادلة وحق هي طرقك يا ملك القديسين. من لا يخافك يا رب ويمجد اسمك لأنك وحدك قدوس" (رؤ ١٥:٣، ٤).

أمام كل هذا لنا أن نتساءل، إن كان يسوع المسيح هو الله الذي ظهر في الجسد فهل كان هو ذلك القدوس؟!...

وللإجابة علي هذا السؤال لنسمع ما قاله الملاك عندما ذهب ليبشر مريم العذراء. قال لها الملاك: "الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللك فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يدعي ابن الله" (لو ١:٣٥).

وقال عنه كاتب سفر العبرانيين "لأنه كان يليق بنا رئيس كهنة مثل هذا قدوس بلا شر ولا دنس قد انفصل عن الخطاة وصار أعلي من السموات" (عب ٧:٢٦).

لكن إن كان الرب يسوع هو حقاً قدوس الله فماذا كانت هيئته؟.. وهنا ينبغي أن نسجل ما كتبه عنه يوحنا الرائي "فالتفت لأنظر الصوت الذي تكلم معي ولما التفت رأيت سبع مناير من ذهب. وفي وسط السبع المناير شبه ابن إنسان متسربلاً بثوب إلي الرجلين ومتمنطقاً عند ثدييه بمنطقة من ذهب. وأما رأسه وشعره فأبيضان كالصوف الأبيض كالثلج وعيناه كلهيب نار. ورجلاه شبه النحاس النقي كأنهما محميتان في أتون وصوته كصوت مياه كثيرة ومعه في يده اليمني سبعة كواكب. وسيف ماض ذو حدين يخرج من فمه ووجهه كالشمس وهي تضيء في قوتها" (رؤ ١:١٢-١٦).

وفي مكان آخر يسجل شاول الطرسوسي "ورأيت في نصف النهار في الطريق أيها الملك نوراً من السماء أفضل من لمعان الشمس قد أبرق حولي وحول الذاهبين معي. فلما سقطنا جميعنا علي الأرض سمعت صوتاً يكلمني ويقول باللغة العبرانية شاول شاول لماذا تضطهدني. صعب عليك أن ترفس مناخس. فقلت أنا من أنت يا سيد فقال أنا يسوع الذي أنت تضطهده" (أع ٢٦:١٣-١٥).

أما عن حادثة التجلي فقد سجلها متي ومرقس ولوقا. ويقول البشير متي "وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلي جبل عال منفردين وتغيرت هيئته قدامهم وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور وإذا موسي وإيليا قد ظهرا لهم يتكلمان معه. فجعل بطرس يقول ليسوع يارب جيد أن نكون ههنا... وفيما هو يتكلم إذا

سحابة نيرة ظللتهم وصوت من السحابة قائلاً هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت له اسمعوا. ولما سمع التلاميذ سقطوا علي وجوههم وخافوا جداً" (مت ١٧:١-٦).

وهكذا فإن السيد عندما تغيرت هيئته، إنما ظهر في حالته الطبيعية الأصلية التي شاهده فيها يوحنا الرائي وشاول الطرسوسي. فالرب يسوع هو بذاته القدوس الساكن في نور لا يدني منه. ولكن ما كان للسيد أن يحل بيننا وهو في تلك الحالة المجيدة الفائقة البهاء. كان لابد وأن "تتغير هيئته" بعد أن أخلي نفسه، فبعد أن كان في صورة الله أخذ صورة عبد صائراً في شبه الناس (في ٢:٦،٧).

وهنا نعود بذاكرتنا لما حدث مع موسي عندما صعد إلي الجبل ومكث عند الرب أربعين نهاراً وأربعين ليلة "وكان لما نزل موسي من جبل سيناء ولوحا الشهادة في يد موسي عند نزوله من الجبل أن موسي لم يعلم أن جلد وجهه صار يلمع في كلامه معه. فنظر هرون وجميع بني إسرائيل موسي وإذا جلد وجهه يلمع. فخافوا أن يقتربوا إليه... وكان موسي عند دخوله أمام الرب ليتكلم معه ينزع البرقع حتي يخرج. ثم يخرج ويكلم بني إسرائيل بما يوصَّي. فإذا رأي بنو إسرائيل وجه موسي أن جلده يلمع كان موسي يرد البرقع علي وجهه حتي يدخل ليتكلم معه" (خر ٣٤:٢٩، ٣٠، ٣٤، ٣٥).

كان لمعان وجه موسي لمعاناً مكتسباً، ومع ذلك خاف منه الشعب، فكم بالحري لو أن الرب يسوع سار وسط الشعب ووجهه يضيء كالشمس. ويقول

يوحنا الحبيب "ولما رأيته سقطت عند رجليه كميت" (رؤ ١:١٧). ويقول الرسول بولس إنه عندما ظهر له الرب يسوع وهو في طريقه إلي دمشق "سقطنا جميعنا علي الأرض" (أع ٢٦:١٤). وفوق جبل التجلي يسجل متي "ولما سمع التلاميذ سقطوا علي وجوههم وخافوا جداً" لأجل هذا كان لابد لذلك القدوس أن يخفي مجده وبهاءه الفائق خلف خيمة الجسد حتي يمكن للبشر الخطاة أن يقتربوا منه وأن ينظروا إليه..

ومع ذلك كانت هناك هالة من المهابة والجلال تحيط بالسيد وكانت إشعاعات الطهر والنقاء تنطلق منه ويحس بها كل من حوله. فعندما رآه رجل به روح نجس صرخ قائلاً "آه مالنا ولك يا يسوع الناصري أتيت لتهلكنا أنا أعرفك من أنت قدوس الله" (مر ١:٢٤). وفي مكان آخر يقول البشير "والأرواح النجسة حينما نظرته خرت له وصرخت قائلة إنك أنت ابن الله" (مر ٢:١١).

وبعد، ألم يكنْ ذلك شيئاً طبيعياً أن تهرب الأرواح النجسة من حضرة القدوس؟!..

وهكذا نري أن الرب يسوع كان هو القدوس مهما اختلفت هيئته. ويؤكد ذلك الرسول عندما قال "الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله لكنه أخلي نفسه آخذاً صورة عبد صائراً في شبه الناس وإذ وجد في الهيئة كإنسان وضع نفسه وأطاع حتي الموت موت الصليب لذلك رفعه الله أيضاً وأعطاه اسماً فوق كل اسم" (في ٢:٦-٩).

في كل مراحل حياته مهما كان التخلي أو التغير في هيئته، كان يسوع هو القدوس وكانت حياته هي البرهان الأكيد علي ذلك. لقد أراد يسوع أن يصير في شبه الناس ليكشف للناس عن نوع آخر من الحياة. فبعد أن تدنست حياة البشر لم يعرفوا ما معني حياة الطهر والنقاء حتي أتي يسوع. كانت حياته هي حياة الكمال المطلق. لم يكذب، لم يتدنس، لم يشتم، لم يتدني إلي مستوي العالم الهابط، بل كان هو الحق والصدق والحب والنقاء في أكمل وأبهي صورها.

علي أن كمال الرب يسوع لم يكن كمالاً سلبياً لكنه أظهر سجاياه وكمالاته ورفعته وسط صراعات شديدة وتجارب مريرة مع أعتي قوي الشر.

ففي بداية خدمته "أصعد يسوع إلي البرية من الروح ليجرب من إبليس" (مت ٤:١). وكانت البرية تجسم الوحدة والجوع والألم، علي أن التجارب التي واجهها هناك كانت مجرد إشارة إلي كل ما سوف يقابله علي طول الطريق.

علي طول الطريق كانت المجابهات مستمرة قاسية بين القدوس وبين أجناد الشر، علي أنها لم تكن دائماً هي المواجهات السافرة الحادة. فكثيراً ما كان يأخذ إبليس موقف الصديق الذي يحاول أن يثنيه عن طريق الشوك والألم. وكثيراً ما قدم له أهدافاً زائفة زائلة، بل كثيراً ما شجعه علي الفتك بمقاوميه والزهد من بني البشر...

والذي يتمعّن في مسيرة السيد يجد التجارب تحاصره من كل جانب وفي

كل وقت. كما أن التجارب عادة لم تكن واضحة مثل الإغراءات الجسدانية والعالمية، لكنها تجارب لا تكاد تبدو كأنها تجارب وتدور حول الأولويات والطرق والأهداف.

وكيما نكتشف حقيقة ذلك القدوس فالأمر يحتاج لكاتب ماهر متعمق ليكشف عن كل التجارب والتحديات وعن مواقف الرب يسوع منها. ولقد كانت معظم التجارب تدور حول أهداف حياته.

ومن العجيب أن القدوس لم يأت ليدين بل ليخلص لأنه لم يرسل الله ابنه إلي العالم ليدين العالم بل ليخلص العالم" (يو ٣:١٧). وكان هذا الهدف العظيم محور الصراع مع أجناد الشر التي أرادت للإنسان أن يبقي غارقاً في خطاياه ويواجه أهوال الدينونة.

ولقد تجسم هذا المشهد عندما أحضروا إليه امرأة أمسكت في زنا. لقد أرادوا من القدوس أن يدين تلك المرأة الخاطئة، وإذا بالرب يسوع يقول لتلك الجماهير الغاضبة المتعطشة للدماء "من كان منكم بلا خطية فليرمها أولاً بحجر ثم انحني أيضاً إلي أسفل وكان يكتب علي الأرض وأما هم فلما سمعوا وكانت ضمائرهم تبكتهم خرجوا واحداً فواحداً مبتدئين من الشيوخ إلي الآخرين. وبقي يسوع وحده والمرأة واقفة في الوسط. فلما انتصب يسوع ولم ينظر أحداً سوي المرأة قال لها يا امرأة اين هم أولئك المشتكون عليك. أما دانك أحد. فقالت لا أحد يا سيد. فقال لها يسوع ولا أنا أدينك. اذهبي ولا تخطئي أيضاً" (يو ٨:٧-١١).

وهكذا استطاع القدوس أن يخلص المرأة الخاطئة من براثن الذئاب، وفي نفس الوقت كشف للأشرار عن حقيقة ذاتهم وإن كان بصورة كلها لطف وعطف.

ما أعظم لطف القدوس وعطفه وطول أناته. إنه لم يأت ليهلك بل ليوقظ ضمير الإنسان وليكشف له عن حياة جديدة كلها طهر ونقاء. فهل من عجب إذا أتت إليه المرأة الخاطئة لتبكي عند قدميه وتسابق العشارون والخطاة ليجلسوا من حوله.

كان ذلك القدوس رقيقاً وديعاً لطيفاً مع الخطاة، لكنه في أوقات كثيرة كان هو الأسد المزمجر الذي يقف بكل جرأة وشجاعة أمام مقاوميه. وكان لابد أن يكون السيد هكذا مع كل الذين أرادوا أن يقفوا في طريقه والعبث بقطيعه. وفي مواجهة قاسية قال لهم "أنتم من أسفل أما أنا فمن فوق. أنتم من هذا العالم أما أنا فلست من هذا العالم" (يو ٨:٢٣). ويستطرد يسوع قائلاً: "أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا ذاك كان قتالاً للناس من البدء" (يو ٨:٤٤).

ما أعظم المفارقة بين أهداف القدوس وأهداف أولاد إبليس. إن نزعة أولاد إبليس هي دائماً للقتل أما أشواق القدوس فكانت للحياة. على أن قمة التجارب والآلام التي واجهت "القدوس" فجاءت فوق الجلجثة. والقلب يكاد يتوقف عندما نتخيل أن ذاك الذي عُلق بين المجرمين هو القدوس بعينه. ولأهمية الأمر فإن الرسول يحثنا أن نذهب فوق تلك التلة المرعبة وأن

نحدق النظر فيه دائماً فقال "ناظرين إلي رئيس الإيمان ومكمله يسوع الذي من أجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب مستهيناً بالخزي فجلس في يمين عرش الله" (عب ١٢:٢).

ولا شك أن الصليب هو الختم الذي يكشف بدون أدني مواربة عن حقيقة ذلك القدوس. فلحظات الموت هي لحظات الصدق التي تتكشف فيها أعماق الإنسان علي حقيقتها. فاللصين اللذين علق وسطهما يسوع كشفا عن حقيقة معدنهما. فكان أحدهما يجدف ويشتم ويملأ الدنيا صراخاً وسباباً. أما اللص الآخر فكان غارقاً في اليأس وكان ينتحب بشدة من هول خطاياه التي تجسمت أمامه وهو علي مشارف الموت. أما عن الرب يسوع فكان ينضح بالحب. كانت كل دقّات قلبه تنادي بالحب. فنادي عندما تدفقت دماه "يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون" (لو ٢٣:٣٤).

لقد أراد الشيطان، في موقعة الصليب، أن يقضي علي نفس يسوع وليس علي جسده. أراد أنه من خلال الألم وبواسطة العذاب الشديد أن ينفذ بشيء من الكراهية إلي قلب يسوع. لكن قلب ذلك القدوس كان محصّناً كل التحصين ضد كل خطية وكل كراهية. وعندما قال الرسول "احتمل الصليب" فإنه كان يؤكد أنه القدوس وحده ولا سواه الذي استطاع أن يحتمل الصليب وأهواله. لم يكن في معدن القدوس أية شائبة فظل متماسكاً فلم يتحطم تحت ذلك الثقل الرهيب.. شتم أما هو فلم يشتم عوضاً.. ظلم أما هو فتذلل.. كان روح القداسة هو ذلك الجوهر الذي كان دائماً يشع بالنقاء...

ولا يمكن لأحد مهما كان أن يعرف مقدار الآلام النفسية التي حلت بالقدوس وهو معلق هناك. فقد كان دائماً في شموخ يتحدي اليهود قائلاً: "من منكم يبكتني علي خطية" أما وهو فوق الصليب فلم يقدر أن يردد ذلك. كانت هناك عاصفة من الهزء والسخرية تهزه وهو فوق الصليب وتزيده آلاماً فوق آلامه. "وكان الشعب واقفين ينظرون. والرؤساء أيضاً معهم يسخرون به قائلين خلص آخرين فليخلص نفسه إن كان هو المسيح مختار الله. والجند أيضاً استهزأوا به وهم يأتون ويقدمون له خلاً قائلين إن كنت أنت ملك اليهود فخلص نفسك.. وكان واحد من المذنبين المعلقين يجدف عليه قائلاً إن كنت أنت المسيح فخلّص نفسك وإيانا" (لو ٢٣:٣٥-٣٧، ٣٩).

لقد كان العار الذي لحق بالقدوس وهو معلق بين المجرمين أعظم من أن يوصف. ومن الواضح أن العار الحقيقي هو في السقوط في الخطية وليس في تحمل جزاءها. لكن هل كان أحد ليدرك في وقتها أن يسوع وهو معلق هناك كان يأخذ مكاننا؟.. وهل أدرك أحد في وقته أن يسوع كان مجروحاً من أجل معاصينا وأنه كان مسحوقاً لأجل أثامنا؟!..

كان العار الذي حل بالقدوس وهو معلق فوق الجلجثة أعظم من أن تصفه الكلمات. لكن العار مهما كان، ما كان ليزعزع ثقة القدوس في نفسه وفي هدف حياته. في كل الأهوال التي حلت عليه كان يسمع صوت الآب يردد قائلاً: "أنت هو ابني الحبيب الذي به سررت" (مت ٣:١٧) وكان يستعيد ما

قاله المرنم "لأنك لن تترك نفسي في الهاوية ولا تدع قدوسك يري فساداً" (مز ١٦:١٠) (أع ٢:٢٧) بل كان الرب يسوع في ثقة تامة يعرف إنه سوف يقوم من الأموات منتصراً وهو ينشد قائلاً: "أين شوكتك يا موت أين صولتك يا هاوية" (١ كو ١٥:٥٥) وكان يدرك أيضاً أنه في قيامته المبهرة سوف يؤكد لكل الأجيال حقيقة شخصه. ففي ضوء القيامة استطاع الرسول بولس أن يقول: "وتعين ابن الله بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات" (رومية ١:٤).

إنها روح القداسة هي التي احتملت الصليب واستهانت بالخزي، وحطمت القبر، وابتلعت الموت، وبددت الأعداء وأشرقت علي دنيانا بفجر جديد. ونحن لأننا غارقون في الخطية لم نفطن لهذه القوة العجيبة، لروح القداسة التي بها نقدر أن نغير حياتنا ودنيانا..

علي أننا يجب أن ندرك أن الرب يسوع عندما خرج حاملاً صليبه لم يكن ليستعرض كمالاته فوق صخرة الجلجثة. لكنه ذهب هناك ليحقق أعظم عمل في الوجود. وقد كشف يوحنا المعمدان عن هذا الهدف العظيم عندما قال "هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم" (يو ١:٢٩). كان هذا هو هدف القدوس في الحياة. وعندما نادي يوحنا المعمدان بذلك إنما كان يقول مؤكداً هوذا قدوس الله الذي يرفع خطية العالم، لأنه من يقدر أن يقوم بهذا العمل العظيم إلا القدوس. ويؤكد الرسول بطرس ذلك عندما قال: "عالمين أنكم افتديتم لا بأشياء تفني بفضة أو ذهب من سيرتكم الباطلة التي تقلدتموها

من الآباء، بل بدم كريم كما من حمل بلا عيب ولا دنس دم المسيح. معروفاً سابقاً قبل تأسيس العالم ولكن قد أظهر في الأزمنة الأخيرة من أجلكم" (١ بط ١:١٨-٢٠). ويؤكد كاتب سفر العبرانيين: "لأنه كان يليق بنا رئيس كهنة مثل هذا قدوس بلا شر ولا دنس قد انفصل عن الخطاة وصار أعلي من السموات" (عب ٧:٦). ثم يضيف قائلاً: "وأما المسيح وهو قد جاء كرئيس كهنة للخيرات العتيدة.. وليس بدم تيوس وعجول بل بدم نفسه دخل مرة واحدة إلي الأقداس فوجد فداءً أبدياً" (عب ٩:١١،١٢).

لقد كانت ذبيحة الجلجثة أعظم الأحداث التي تمت في عالمنا، لهذا كانت المحور الذي دارت حوله كل نبوات العهد القديم وكانت منبع الراحة ومصدر العزاء لكل المتألمين. ويقول دانيال "وبينما أنا أتكلم وأصلي وأعترف بخطيتي وخطية شعبي إسرائيل وأطرح تضرعي أمام الرب إلهي عن جبل قدس إلهي. وأنا متكلم بعد بالصلاة إذا بالرجل جبرائيل الذي رأيته في الرؤيا في الابتداء مُطاراً واغفا لمسني عند وقت تقدمة المساء. وفهّمني وتكلم معي وقال يا دانيال إني خرجت الآن لأعلمك الفهم. في ابتداء تضرعاتك خرج الأمر وأنا جئت لأخبرك لأنك أنت محبوب. فتأمل الكلام وافهم الرؤيا. سبعون أسبوعاً قضيت علي شعبك وعلي مدينتك المقدسة لتكميل المعصية وتتميم الخطايا ولكفارة الإثم وليؤتي بالبر الأبدي ولختم الرؤيا والنبوة ولمسح قدوس القدوسين" (دانيال ٩: ٢٠-٢٤).

ويقول إشعياء "كلنا كغنم ضللنا ملنا كل واحد إلي طريقه والرب وضع

عليه إثم جميعنا... أما الرب فسرّ أن يسحقه بالحزن. إن جعل نفسه ذبيحة إثم يري نسلاً تطول أيامه ومسرة الرب بيده تنجح.. من أجل أنه سكب للموت نفسه وأحصي مع أثمة وهو حمل خطية كثيرين وشفع في المذنبين" (إش ٥٣:٦، ١٠، ١٢).

كان لابد وأن يمسح قدوس القدوسين علي مذبح الجلجثة حتي يؤتي بالبر الأبدي وليحمل خطية كثيرين ويشفع في المذنبين...

لقد صعد القدوس بإرادته علي مذبح الجلجثة وهناك كشف دون أدني مواربة عن آلامه ليؤكد عظم حبه لنا. "من أجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب مستهيناً بالخزي".

وبعد فإنه من أجل كل هذا الإنجاز العظيم الذي أنجزه قدوس القدوسين فوق صخرة الجلجثة، تحولت تلك الصخرة الكئيبة المفزعة إلي منارة عالية تشع بالنور وتبعث بالدفء وتولد السلام والسعادة والبهجة علي مدي الأزمان. وإلي اليوم فإن القلوب في كل مكان وزمان ترنو من بعيد إلي تلك البقعة المقدسة وهي تشدو بخشوع عظيم وحب فائق قائلة:

في جلجثـة ربي قضـي — عني علي عود الصليب

في جلجثة نلت الرضي — فالشكر للفادي الحبيب

ثالثاً "رأينا مجده"

"أرني مجدك" سيطرت هذه الطلبة الغالية علي قلب موسي. وهي تعبرّ عن شدة شوقه لأن يري وجه الله وأن يلقي بنظرة ولو خاطفة علي ذلك المجد الأسني. ولا شك أن ذلك الطموح الغريب لم يأت من فراغ لكنه جاء نتيجة لتلك العشرة الطويلة والألفة الحميمة فزاد فيه الشوق لمزيد من الحب والقرب..

لم يدر أن هناك حدوداً معينة لا يقدر الإنسان أن يتخطاها. ويقول بلدد الشوحي "هوذا نفس القمر لا يضيء والكواكب غير نقية في عينيه. فكم بالحري الإنسان الرمة وابن آدم الدود." (أي ٢٥:٥، ٦). كيف يجرؤ إذاً إنسان مهما كان أن تستبد به هذه الرغبات التي لم تحظ بها الملائكة؟..

لكن موسي كان له شيء من العذر لأن الله عز وجل هو الذي شجعه وهو الذي ولّد فيه هذه الأشواق. كان الله يتحدث إلي موسي في كل مكان، وكان يدعوه ليرتقي فوق الجبل ليمثل في حضرته لأيام بلا عدد. لا عجب إذاً إذا تولدت في قلب موسي هذه الأشواق.

وكأني بموسي عندما قال "أرني مجدك" كان يؤكد أنه لم يشبع برؤية مجد الرب الذي ظهر في تلك المعجزات العظيمة التي تمت أمامه وعلي يديه... إنه لم يشبع برؤية ذلك المجد الذي تجلي عندما انشق البحر أمامه. وعندما تزلزل الجبل وامتلأ بالدخان.. لا، لا... إن كل هذه لم تشبع قلب

موسي. الشيء الوحيد الذي يمكن أن يشبع قلبه هو شخص الرب نفسه...

فقال: "أرني مجدك.."

إن الحنين الذي يجيش بأعماق الإنسان نحو الله هو مثل حنين الإنسان نحو أبيه. فبالرغم من عمق الهوة وطول الفراق، وبالرغم من كل ما يفصل الإنسان عن الله من ظلام الجهل والخطأ، فإن في داخل الإنسان توجد أشواق جارفة لرؤية الله والتمتع به...

وهنا يصطدم الإنسان بهذه الحقيقة المرّة، أن هناك حدوداً معينة لا يمكن أن يتخطاها. فعندما قال موسي لله "أرني مجدك. فقال أجيز كل جودتي قدامك وأنادي باسم الرب قدامك. وأتراءف علي من أتراءف وأرحم من أرحم. وقال لا تقدر أن تري وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش. وقال الرب هوذا عندي مكان. فتقف علي الصخرة ويكون متي اجتاز مجدي أني أضعك في نقرة من الصخرة وأسترك بيدي حتي أجتاز. ثم أرفع يدي فتنظر وراءي. وأما وجهي فلا يُري" (خر ٣٣:١٨-٢٣).

"وأما وجهي فلا يُري".. هنا جاءت الصدمة الأليمة. كان موسي يريد أن يتمتع بشخص الله لكنه صدم بأنه توجد حدود لا يمكن أن يتخطاها وأشواق لا يمكن أن يحققها...

لكن عندما جاء ملء الزمان تحققت للإنسان تلك الأشواق الغالية واستطاع الإنسان أن يتواجد في محضر الله وأن يعاينه وجهاً لوجه. فقال

يوحنا "والكلمة صار جسداً وحلّ بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً.. الله لم يره أحد قط الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبرّ" (يو ١:١٤،١٨).

وهنا يبدو التناقض واضحاً، فقد قال الله لموسي في القديم "لا تقدر أن تري وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش"، لكن يوحنا أنشد قائلاً: "رأينا مجده"!!..

إذاً كيف تحققت هذه الرؤية وبأية عين؟!.. فإنه لا يمكن للعين البشرية أن تري الله لأن الله روح والعين البشرية لا يمكنها أن تري إلا الأشياء المادية. لاشك إذاً أن يوحنا عندما قال "رأينا مجده" إنما كان يعني أن كل ماشاهده إنما شاهده ببصيرته الروحية.

ولا يمكن أن يكون يوحنا قد رأي كل المجد. فالمجد الذي رآه يوحنا هو مجد الفادي، لذا قال: "رأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً". والحق لا يمكن أن يُري، والقدوس لا يمكن أن يدني منه، لكن ذلك الحق القدوس استطاع يوحنا أن يراه ولقد تم ذلك من خلال النعمة.

فالنعمة هي المحبة والرحمة.. وهي اليد التي سترت موسي عندما اجتاز الرب أمامه.. ويمكننا القول إنها يد الرب المثقوبة هي التي تصنع النقرة في الصخر وهي التي تظلل الإنسان حتي يقدر من خلالها أن يري مجد الله...

إن اليد المثقوبة هي التي تجسم النعمة ، لذا فإن يوحنا عندما رأي كان

أول شيء رآه هو النعمة فقال: "رأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً"

وإن كان يوحنا قد كتب هذه الكلمات في مستهل بشارته لكنه أراد أن يلخص حياة الرب يسوع في هاتين الكلمتين "النعمة والحق". وعلي طول الطريق كان هذا هو المجد الذي عاينه يوحنا. مجد ذلك المزيج العجيب من النعمة والحق.. التواضع والعظمة... الوداعة والقدرة.. وقد يبدو أنه يوجد تناقض بين كل هذه الصفات التي لا يمكن أن تجتمع معاً. وهنا نسمع يوحنا يقول: "والكلمة صار جسداً" أي أن هذا المجد الذي جاء نتيجة تجمع هذه الصفات المتناقضة إنما جاء نتيجة للتجسد. ولقد رأي المرنم هذا المجد منذ القديم فأنشد قائلاً: "الرحمة والحق التقيا، البر والسلام تلاثما" (مز ٨٥: ١٠).

أ- "تعالوا إلي..."

كان موكب الرب يسوع هو موكب القدرة العظيمة المغلّفة بالمحبة والرحمة. فكان، أينما سار وحيثما وجد، كانت قوة عجيبة تخرج منه. ويذكر البشير "وكل الجمع طلبوا أن يلمسوه لأن قوة كانت تخرج منه وتشفي الجميع" (لو ٦:١٩).

كان السيد تجيش في داخله أشواق جارفة نحو البشر البؤساء وكان في حنانه يريد أن يأخذ البشرية المتألمة في أحضانه، كيما يمسح دموعها ويبدد مخاوفها ويضمد جراحها ويرسم الابتسامة علي شفتيها. من هنا جاءت تلك

الدعوة الخالدة التي رددها يسوع في كل مكان قائلاً: "تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم" (مت ١١:٢٨).

ولقد تأكدت الجماهير المتعطشة للحب والحنان من صدق هذه الدعوة ومن قدرة يسوع علي أن يريح المتعبين. وهكذا التفت الجموع حوله وأخذت أصوات الاستغاثة تتردد في كل مكان قائلة: "ارحمنا يا ابن داود.. ارحمنا يا ابن داود.."

هكذا كانت مسيرة ملك الملوك هي مسيرة الأمجاد المتلاحقة. فما أعظم المجد الذي تجلي عندما فتح أعين العميان وشفي المرضي وأقام الموتي. وكان الرب يسوع في كل أعماله العظيمة هذه يقدم للجميع كأس المحبة. لقد نسيت البشرية في صراعاتها معني المحبة، لكن الرب يسوع كان في كل ما قال وما فعل يبرز جوهر المحبة. وهكذا فإن كان الرب يسوع قد أجري الكثير من معجزاته بكلمة لكنه أيضاً في مواضع كثيرة كان يصر علي أن يلمس المرضي ليؤكد عمق المحبة التي تربطه مع البشر. لقد كان هدف يسوع أن يصل إلي القلب.

ومن الواضح بل ومن العجيب أن الرب يسوع في مسيرته رفض أن يستغل قوته في التعالي وللتعظم والانتقام. كانت الأوقات التي استغل فيها سلطانه كانت أوقات هبّ فيها لخدمة الإنسان.

ويروي البشير مرقس: "وقال لهم في ذلك اليوم لما كان المساء لنجتز إلي العبر. فصرفوا الجمع وأخذوه كما كان في السفينة.. فحدث نوء ريح عظيم

فكانت الأمواج تضرب إلي السفينة حتي صارت تمتلئ. وكان هو في المؤخر علي وسادة نائماً فأيقظوه وقالوا له يا معلم أما يهمك أننا نهلك. فقام وانتهر الريح وقال للبحر اسكت. ابكم. فسكنت الريح وصار هدوء عظيم. وقال لهم ما بالكم خائفين هكذا. كيف لا إيمان لكم. فخافوا خوفاً عظيماً وقالوا بعضهم لبعض من هو هذا. فإن الريح أيضاً والبحر يطيعانه" (مر ٤:٣٥-٤١).

لقد أسكت الرب يسوع الأمواج وهو يعرف أن البحر لا يقدر أن يبتلع السفينة التي كان هو نائماً داخلها، لكنه فعل ذلك ليهدئ من روع تلاميذه الذين كادوا أن يموتوا من شدة الفزع.

وفي مكان آخر يذكر البشير مرقس أن الرب يسوع مشي فوق البحر المضطرب. لكن الرب يسوع لم يفعل ذلك ليستعرض قدراته العجيبة الفريدة. لكنه فعل ذلك ليصل إلي تلاميذه الذين كانوا معذبين وسط البحر الهائج. ويقول البشير مرقس "وللوقت ألزم تلاميذه أن يدخلوا السفينة ويسبقوا إلي العبر إلي بيت صيدا حتي يكون قد صرف الجمع. وبعد ما ودعهم مضي إلي الجبل ليصلي. ولما صار المساء كانت السفينة في وسط البحر وهو علي البر وحده. ورآهم معذبين في الجذف. لأن الريح كانت ضدهم. ونحو الهزيع الرابع من الليل أتاهم ماشياً علي البحر وأراد أن يتجاوزهم. فلما رأوه ماشياً علي البحر ظنوه خيالاً فصرخوا. لأن الجميع رأوه واضطربوا. فللوقت كلمهم وقال لهم ثقوا. أنا هو. لا تخافوا. فصعد

إليهم إلي السفينة فسكتت الريح" (مر ٦: ٤٥-٥١).

وهكذا فإن القصة من أولها لآخرها تظهر عمق المحبة. لم يكن الأساس فيها هو إعلان القوة والظهور في مظهر القدرة والعظمة. لقد مشي يسوع فوق البحر الهائج وسار وسط العواصف المزمجرة ليؤكد للإنسان مهما كان أنه معه وسط زوابع الحياة ووسط لججها المتلاطمة...

هذا هو مجد يسوع...

ولقد أظهر الرب يسوع مجده الفائق عندما أقام لعازر من الأموات. وقف يسوع أمام القبر وصاح بصوت عظيم "لعازر هلم خارجاً"، وإذا بالميت يقوم بعد أن قضي في القبر أربعة أيام. وقد نري هنا قمة المجد والعظمة لكني أحسب أن قمة المجد بدت بصورة أعظم عندما بكي يسوع. فلم يكن يسوع هو الساحر الذي لا يهمه إلا أن يستحوز علي إعجاب الجماهير بأي طريقة ما. إن الذين يملكون القوة دون أن يكون عندهم الأحاسيس الشريفة النبيلة هم وبال علي البشرية. لهذا سجل الوحي هاتين الكلمتين الغاليتين "بكي يسوع" ليكشف عن عمق أحاسيسه الرائعة النبيلة.

ومن العجيب أن الرب يسوع سخّر قواه لخدمة جميع الناس مهما كانوا، الأشرار والصالحين، اليهود والأمم. وكان السيد يدرك أن كثيرين من الذين شفاهم سيتنكرون له ويهتفون في آخر المطاف اصلبه.. اصلبه!!...

ومن المؤكد أن الرب يسوع كان يعلم بهذه النتيجة مقدماً. لقد تعامل

الرب يسوع بكل الحب مع البشرية الساقطة التي لم تستحق قط إحساناته ومحبته، لكنه لم يكل في أن يعطي ويبذل ويضحي ويظهر محبته بكل الطرق للإنسان مهما كان. كان هو العطاء الذي بلا حدود. كان كالنبع الزاخر المتفجر بالخير الذي يفيض دائماً من علٍ ليملأ الوهاد والوديان..

حتي بعد أن ألقوا القبض عليه "وإذا واحد من الذين مع يسوع مد يده واستل سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه. فقال له يسوع رد سيفك إلي مكانه لأن كل الذين يأخذون بالسيف بالسيف يهلكون. أتظن أني لا أستطيع الآن أن أطلب إلي أبي فيقدم لي أكثر من اثني عشر جيشاً من الملائكة" (مت ٢٦:٥١-٥٣). "فأجاب يسوع وقال دعوا إليَّ هذا. ولمس أذنه وأبرأها" (لو ٢٢:٥١).

في ذلك الموقف العصيب لم يستغل السيد قوته ليدافع عن نفسه بل ليشفي الأعداء. هذا هو مجد يسوع مجد القوة العظيمة المغلّفة بالمحبة الوافرة العجيبة..

ب- لأني وديع

يعتقد البعض أن الرب يسوع كان ذا شخصية جادة عابسة يبدو عليه علامات الحزن دائماً من ثقل الهموم التي كان يحملها. ولا عجب في ذلك فقد كانت معظم التنبوءات تتحدث عن جراحه وآلامه. وقال عنه إشعياء إنه "رجل أوجاع ومختبر الحزن" (إش ٥٣:٣). وترسّخ هذا الاعتقاد في أذهان الناس حين رأوا يسوع يختتم حياته علي الأرض وهو معلق فوق

الصليب!!...

كما يحلو للبعض الآخر أن يصوروا الرب يسوع علي أنه الرجل القوي الجبار الذي استطاع أن يفجر ثورة اجتماعية قلبت الأوضاع وشملت كل نواحي الحياة...

ويسوع هو حقاً ذلك الرجل الثائر الذي جاء ليفجر أعظم ثورة في الوجود. لقد فجر يسوع هذه الثورة ضد الظلم والقهر، ضد الطبقية البشعة المهينة، ضد الديانات السطحية العقيمة، ضد التقاليد البالية والقيادات الباغية. علي أن الرب يسوع أراد فوق كل شيء أن يحدث ثورة داخل كيان الإنسان نفسه وهذه الثورة موجهة ضد المطامع والشهوات. كانت ثورة يسوع هي ضد كل القيود التي تسلب الإنسان حريته وكرامته.

علي أن معظم الثوار "والمصلحين" كانت حياتهم تغلبها روح القسوة والعنف والتطرف. يضحون بالمباديء والقيم في سبيل الوصول إلي غاياتهم، ويضحون بالفرد في سبيل المجتمع. وتحول الثوار "والمصلحون" إلي طغاة سفكوا الدماء وأشعلوا الحروب وقادوا البشرية إلي جحيم من التعاسة والشقاء...

والآن، بعد أن انقضي عشرون قرناً علي تلك الثورة التي أشعلها يسوع، ينبغي لنا أن نتأمل في تلك الثورة لنري كيف أشعلها، بل لنتأمل ذلك الثائر الذي مازال يشعل تلك الثورة في عالمنا حتي اليوم...

وعندما نتأمل ذلك الثائر فإننا لا نراه رجل الحزن والكآبة ولا نجده ذلك الجبار المتغطرس، بل علي النقيض نجده رجل التواضع والوداعة وجهه يشع بالبشر ويفيض بالسلام... وكان ذلك الثائر يقول دائماً: "تعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم" (مت ١١:٢٩).

لأني وديع

والثائر الوديع شخصية غير موجودة. فالثائر يسعي دائماً إلي كراسي السلطة يريد أن يظهر دائماً في مظهر القوة والعظمة حتي يستطيع أن يتحكم في الجماهير. أما ذلك الثائر الوديع فقد وصل بوداعته إلي أقصي الحدود. وعندما قال له واحد "يا سيد أتبعك أينما تمضي فقال له يسوع للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار. وأما ابن الإنسان فليس له اين يسند رأسه" (لو ٩:٥٨). وهكذا كسر ذلك الملك والثائر الوديع الحواجز وعاش فقيراً متواضعاً مثل عامة الناس. ويقول زكريا النبي: "ابتهجي جداً يا ابنة صهيون اهتفي يا بنت أورشليم. هوذا ملكك يأتي إليك هو عادل ومنصور وديع وراكب علي حمار وعلي جحش ابن أتان" (زك ٩:٩).

ولقد كان الهدف الأسمي الذي كان يهدف إليه ذلك الملك الوديع هو أن يفجر الثورة داخل قلب الإنسان. لكن كيف؟!.. كيف يكشف للخطاة عن بشاعة خطاياهم دون أن يحطم كبرياءهم؟!.. كيف يولّد في قلوبهم الحب والكراهية في وقت واحد؟... كيف ينقلبوا علي أنفسهم وعلي الماضي ويندفعوا بابتهاج في طريق جديد؟!.. كيف يكرهون الداء ويحبون الدواء

مهما كان مراً؟... كيف يفجر في أعماقهم أحاسيس جديدة فيستعذبون ما كانوا يكرهونه ويكرهون ما كانوا يستعذبونه؟.. كيف يقودهم في طريق جديد دون أن يكبلهم أو أن يتدخل في حريتهم؟.. كيف يولد الإرادة فيمن سُلبت إرادتهم واستعذبوا الرذيلة والهوان؟... كيف؟.. كيف؟... كيف؟...

كانت هذه هي المعادلات الصعبة التي كان علي ذلك الثائر الوديع أن يجابهها ويواجهها. ولأن هدف الثائر الوديع هو الخطاة فإنه اختار تلاميذه من الخطاة والعشارين. لم يختر تلاميذه من طبقة الكتبة والفريسيين. كان الثائر الوديع يقول دائماً "روح الرب عليّ لأنه مسحني لأبشر المساكين" (لو ٤:١٨) كان هدفه هو أن يصل ببشارة الفرح والسلام للمساكين بالروح.

وقد يظن البعض أن هذه رسالة سهلة. لكن لننظر كيف تعامل ذلك الملك الوديع مع الخطاة. لنتأمله كيف سافر الأميال ليتقابل مع المرأة السامرية. وكيف قدم نفسه لها كرجل غريب يحتاج إلي رشفة ماء؟... ولننظر إليه في موضع آخر كيف جلس علي الأرض وأخذ يكتب عليها وهو يدافع عن تلك المرأة التي أراد الفريسيون أن يرجموها؟... ولنستمع إليه: كيف نادي زكا العشار وقال له "يا زكا اسرع وانزل لأنه ينبغي أن أمكث اليوم في بيتك" (لو ١٩:٥).

ولكم دخل ذلك الملك الوديع إلي بيوت العشارين والخطاة وأطلق من هناك تلك الصيحة الخالدة: "لم آت لأدعو أبراراً بل خطاة إلي التوبة" (مت٩:١٣).

لقد كسر ذلك الملك الوديع الحواجز وإذا بحشود العشارين والخطاة تلتف حوله، وكانت التغيرات العجيبة تحدث داخلهم. كان الملك الوديع يقوم بجراحاته داخلهم دون أن يشعروا. لقد وثقوا فيه واستسلموا له فإذا به يخلقهم من جديد... وهنا يكمن سر جلال يسوع ومجده..

لأني وديع...

هنا يحلو لنا أن نستعيد ذلك النشيد العذب الذي أطلقه الملك المتواضع والثائر الوديع عندما قال: "تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم. احملوا نيري عليكم وتعلموا مني. لأني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم. لأن نيري هين وحملي خفيف" (مت ١١:٢٨-٣٠).

وقد يبدو أن هناك تناقضاً شديداً في هذه المقطوعة الموسيقية العذبة، فهي تبدأ بالراحة وتنتهي بالعذاب!! لكن لا غرابة في ذلك لأن الرب يسوع قد جاء ليخلق أجيالاً من الودعاء العمالقة الذين يعرفون كيف يجدوا راحتهم وسط العذاب، بل الذين يستعذبون العذاب في سبيل غرس زهرة للحب. ولقد تقدم يسوع الصفوف عندما اقتحم الجلجثة ليغرس هناك أجمل زهور الحب وليؤكد للعالم أن الودعاء وحدهم هم الذين يجمّلون ويعطرون ويصلحون الأرض.

وهكذا أراد ذلك الثائر الوديع أن يعلمنا سر الحياة الغالية السعيدة المنتصرة. إن الحب هو سر الحياة وإن كانت شريعة الحب تبدو مكلفة لأقصي الحدود فإن الثمن الذي يبذل فيها سيبقي دائماً تافهاً...

ولننظر إلي ذلك الملك الوديع كيف سار وكيف عاش، من المذود إلي الجلجثة كان هو الحب مجسماً. في زورقه الصغير رفع يسوع شراع الحب وسط بحار هائجة وأمواج متلاطمة من البغضة والأنانية لكن كل هذه لم تدخل إلي قاربه قطرة واحدة من الحقد أو الكراهية. وبعد كل هذا حق له أن ينادي عن جدارة واستحقاق تعلموا مني... تعلموا مني الحب...

إنها مسيرة طويلة لا تقاس بالسنين، مسيرة مجيدة حافلة بالمواقف الرائعة الجليلة. وصلت إلي ذروتها في تلك الليلة الأخيرة الحزينة. وهنا يجب أن نتوقف لنسجل ذلك المشهد الرائع الذي سجله يوحنا عندما قال: "أما يسوع قبل عيد الفصح وهو عالم أن ساعته قد جاءت لينتقل من هذا العالم إلي الآب إذ كان قد أحب خاصته الذين في العالم أحبهم إلي المنتهي. فحين كان العشاء وقد ألقي الشيطان في قلب يهوذا سمعان الاسخريوطي أن يسلمه. يسوع وهو عالم أن الآب قد دفع كلّ شيء إلي يديه وأنه من عند الله خرج وإلي الله يمضي. قام عن العشاء وخلع ثيابه وأخذ منشفة واتّزر بها. ثم صبّ ماء في مغسل وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ ويمسحها بالمنشفة التي كان متزراً بها. فجاء إلي سمعان بطرس فقال له ذاك يا سيد أنت تغسل رجليّ؟ أجاب يسوع وقال له لست تعلم أنت الآن ما أنا أصنع ولكنك ستفهم فيما بعد. قال له بطرس لن تغسل رجليّ أبداً. أجابه يسوع إن كنت لا أغسلك فليس لك معي نصيب. قال له سمعان بطرس يا سيد ليس رجليّ فقط بل أيضاً يديّ ورأسي. قال له يسوع الذي قد اغتسل ليس له حاجة إلا

إلي غسل رجليه بل هو طاهر كله. وأنتم طاهرون ولكن ليس كلكم. لأنه عرف مسلمَه. لذلك قال لستم كلكم طاهرين".

"فلما كان قد غسل أرجلهم وأخذ ثيابه واتكأ أيضاً قال لهم أتفهمون ما قد صنعت بكم. أنتم تدعونني معلماً وسيداً وحسناً تقولون لأني أنا كذلك. فإن كنت أنا السيد والمعلم قد غسلت أرجلكم فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض. لأني أعطيتكم مثالاً حتي كما صنعت أنا بكم تصنعون أنتم أيضاً. الحقّ الحقّ أقول لكم إنه ليس عبد أعظم من سيده ولا رسول أعظم من مرسله. إن علمتم هذا فطوباكم إن عملتموه" (يو ١٣:١-١٨).

لم يأت إنسان ما بتعاليم مثل تعاليم يسوع. والأعظم من هذا أن الرب يسوع علّم بمثال حياته. لقد علّم أن أعظم ثورة هي الثورة علي النفس وليس الثورة علي العالم. الثورة الداخلية وليست الخارجية، الثورة علي الأنانية والشهوات الجسدانية والأطماع المادية والكبرياء والإباحية. ولقد عاش السيد بكل ما علّم به وعن جدارة واستحقاق قال "تعلموا مني.. فإن كنت أنا السيد والمعلّم قد غسلت أرجلكم فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض". وقال الرسول "فليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح يسوع أيضاً. الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله. لكنه أخلي نفسه أخذاً صورة عبد صائراً في شبه الناس. وإذ وجد في الهيئة كإنسان وضع نفسه وأطاع حتي الموت موت الصليب" (في ٢:٥-٨).

ويعوزنا الوقت كيما نسجل كل المواقف الرائعة الجليلة التي اتخذها ذلك الملك الوديع والمعلم الصادق نحو أحبائه وأصدقائه. لكن الرب يسوع يزداد مجداً وجلالاً عندما نتأمل كيف واجه الأعداء وهم في ذروة شرهم وضراوتهم. لقد كان الرب يسوع يتعامل معهم بكل الحب والرفق والصبر مؤكداً أن البغضة والكراهية هي من طرف واحد فقط.

ولقد كان الرب يسوع واضحاً وصريحاً معهم. لم يمالىء ولم يداهن ولم يراوغ ولم يخف بل كان صادقاً قوياً شامخاً متحدياً. لم يقدم أية تنازلات بالرغم من التحديات والمصادمات التي جابهها. لم يهدأ ذلك الثائر الوديع ولم يلن. وأخيراً عندما أزفت ساعة الرحيل أسلم يديه للقيود وخرج حاملاً صليبه في وداعة تامة.

لم يفقد الحمل الوديع وداعته وسط الذئاب المفترسة. كان يسوع هو المصلوب الوحيد الذي ارتقي فوق الصليب بمحض إرادته. وكان هو المصلوب الوحيد الذي صلّي من أجل أعدائه فوق خشبة العذاب...

وهكذا اكتشف الأعداء أن هذا المصلوب الوديع لا يقهر. كانت نظراته لهم من فوق الصليب تشع بالحب، وكانت ابتسامته الوديعة لا تفارقه مع شدة المعاناة. وكأني به في كل ذلك كان يؤكد لصالبيه أنهم وإن كانوا قد

استطاعوا أن ينقضوا ذلك الجسد لكن روح يسوع لا يمكن لأحد أن يهزمها أو أن ينقضها في أي حال من الأحوال.

جـ- أجذب إلي الجميع...

كان يوحنا يسير في موكب الرب يسوع وكانت الأمجاد تتوالي أمامه. لقد رأي فيه الطبيب العظيم والراعي الصالح والملك المتواضع والثائر الوديع والمعلم الفريد. لكن، دون أدني شك أن قمة الأحداث التي هزت كيانه هو ذلك الحدث الفريد الذي تم فوق جبل التجلي الذي سجله البشيرون. ويقول البشير متي "وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلي جبل عال منفردين وتغيرت هيئته قدامهم وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور" (مت ١٧: ١، ٢).

هنا قمة المجد.. لقد اختفت خيمة الجسد فجأة وإذا بيوحنا يري السيد علي حقيقته وجهه مضيء كالشمس وثيابه بيضاء كالنور...

ومع ذلك كان يوحنا يتوقع أن يختم السيد حياته بمشهد مجيد يفوق كل الأمجاد السابقة. خاصة وأن السيد قال لهم "وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إليّ الجميع" (يو ١٢: ٣٢) وكأني به أراد أن يقول لهم إنه سيأتي وقت فيه أرتفع عن الأرض، لكن لا تسألوني الآن عن ذلك العرش الذي سأرتفع فوقه، ولا عن الهيئة التي سأظهر عليها، ولا عن الكلمات التي سأنطق بها، ولا عن التاج الذي سأتوج به رأسي، وهل ستنفتح السماء كما حدث من قبل، وهل ستأتي سحابة نيرّة لتزيد الموقف جلالاً ومجداً؟!..

لا... لا... لاتسألوني عن ذلك، لكن الشيء الوحيد الذي أؤكده لكم إني سأتراءي لكم في مجد من طراز آخر. ولا شك أنكم عندما ترونني هناك سيصيبكم الانبهار. هناك سأجذبكم إليّ.. هناك سأستولي علي قلوبكم وعقولكم.. هناك ستنسون العالم بكل ما فيه وتحتقرون الدنيا وكل ما عليها، ذلك لأنكم هناك ستكتشفون أمجاداً من طراز آخر تفوق كل أمجاد العالم...

ولا شك في أن التلاميذ لم يفهموا في وقتها كيف يمكن للسيد أن يولّد فيهم كل هذه المشاعر المتناقضة دفعة واحدة؟.. كيف يبكيهم ويفرّحهم؟.. كيف يطرحهم علي الأرض ثم يقيمهم؟.. كيف يخيفهم ثم يطمئنهم؟.. كيف يجذبهم خارج الأرض وهم واقفون عليها؟.. كيف ينسيهم الجسد وهم يعيشون ويتحركون داخله؟.. كيف يولد فيهم الكراهية والحب معاً؟.. كيف يبعث فيهم الزهد والطموح؟.. كيف يمكن لشخص ما في موقف ما أن يولد كل هذه المشاعر المتناقضة دفعة واحدة؟..

كيف؟!!..

لقد كان التلاميذ يتوقعون هذا الحدث العظيم الذي فيه يتجلي السيد بمجد عظيم يفوق أمجاده السابقة ويفوق كل ما حدث فوق جبل التجلي وإلا ما كان السيد قد تحدث عنه. ولقد جاء حديث السيد هذا بعد حادث التجلي الذي شاهده ثلاثة فقط من تلاميذه المقربين إليه. لكن السيد يقول هنا إن حادث التجلي القادم سوف يكون في مكان عام يشاهده الجميع، وأنه وهو

هناك سيأسر القلوب ويستولي علي المشاعر ويجذب إليه الجميع.. الجميع.. الجميع بكل تناقضاتهم واختلافاتهم.. الجميع حتي الأعداء وأشد المقاومين...

آه، ما أعظم وما أمجد هذا الموقف... متي وأين يتم؟..

لكن المفاجأة المذهلة جاءت عندما أسلم السيد نفسه للقيود وبسرعة عجيبة أخذه الأعداء فوق تلة الجلجثة حيث صلبوه...

أصاب يوحنا الذهول ولم يدر ماذا يفعل أو ماذا يقول. فها هو يري سيده معلقاً بين الأرض والسماء في ذلك المشهد المزري الرهيب. ذلك السيد الذي سار وراءه وعاين أمجاده انتهت حياته فجأة بذلك الحادث المؤلم المشين. ولا شك أن ذلك الحادث سوف يطغي بظلاله الكثيفة علي كل أمجاد الماضي ويمحوها.

أحس يوحنا بسكين العار تغوص في أعماقه، وأخذ يقول لنفسه أهكذا تنتهي حياة ملك الحب فوق خشبة العار والعذاب؟!... أهكذا تفترس حشود الوحوش والذئاب ذلك الحمل الوديع؟!... وأهكذا تتحطم المنارة العالية التي كانت تشع بالمباديء السامية العجيبة وسط زوابع الحقد والنفاق؟!..

أي خير لدنيانا بعد اليوم؟.. كيف استسلم الفارس المغوار فجأة، وكيف تبددت قواه وخارت عزيمته؟.. لقد كانت كل الآمال معقودة عليه بأنه هو الذي سيفدي إسرائيل وإذا بكل الآمال والأحلام تتبدد فجأة...

في ذلك اليوم الكئيب أظلمت الشمس وتزلزلت الأرض وهاجت الزوابع وتحطمت الصخور.. أما الظلام الذي ساد يوحنا والتمزق الذي حل بقلبه فكانا أعظم من أن يوصفا لكن فجأة انقشع الظلام وهدأت الزوابع. إذا بالسيد وهو معلق فوق الصليب تنفرج أساريره وأخذ يهتف وينادي بنغمة البهجة والانتصار "قد أكمل... قد أكمل...".

هنا دبّت الحياة في قلب يوحنا وانقشعت الغشاوة من علي عينيه ورأي المصلوب علي حقيقته وهو في قمه الجلال والمجد... أدرك يوحنا أن الصليب في حقيقته هو ذلك المذبح الفريد الذي قدم عليه حمل الله نفسه فدية للعالم. وتذكر ماسبق وأنشده عندما قال "وكما رفع موسي الحية في البرية هكذا ينبغي أن يرفع ابن الإنسان. لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحيوة الأبدية. لأنه هكذا أحب الله العالم حتي بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية. لأنه لم يرسل الله ابنه إلي العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم" (يو ٣:١٤-١٧).

إن الصليب في حقيقته هو قمة الحب والبذل وأنه وسيلة الله للخلاص. وتعجب يوحنا عندما تذكر أن الصليب كان موضوع الحديث الذي تم فوق جبل التجلي، كأنما كان هذا ليؤكد أن أمجاد الصليب تفوق كل الأمجاد التي بدت هناك. ويقول البشير لوقا "وإذا رجلان يتكلمان معه هما موسي وإيليا اللذان ظهرا بمجد وتكلما عن خروجه الذي كان عتيداً أن يكمله في أورشليم" (لو ٩: ٣٠، ٣١).

لقد كان لابد أن يخرج الرب يسوع من عالمنا بطريقة مجيدة. ولقد ظن يوحنا أن جبل التجلي هو أنسب المواقع، لكنه لو فعل ذلك لكان قد خرج من هناك بمفرده، لكنه انطلق من فوق الجلجثة ليخرج معه البشرية بأسرها. لقد أراد السيد أن يُخرج البشرية من أسرها وعبوديتها، لكنه هنا لم يشق البحر بل شق جسده. ويقول كاتب سفر العبرانيين "فإذ لنا أيها الإخوة ثقة بالدخول إلي الأقداس بدم يسوع. طريقاً كرّسه لنا حديثاً حياً بالحجاب أي جسده" (عب ١٠:١٩، ٢٠) ويؤكد الرسول قائلاً "لذلك يقول: إذ صعد إلي العلاء سبي سبياً وأعطي الناس عطايا. وأما أنه صعد فما هو إلا أنه نزل أيضاً أولاً إلي أقسام الأرض السفلي" (أف ٤:٨، ٩).

لقد فتح الرب يسوع بجسده المكسور الطريق الذي كان مسدوداً أمام البشرية وحطم العداوة وكسر الحجاب المتوسط وهكذا اتضح أن الجلجثة المرعبة هي في حقيقتها بوابة عظيمة ندخل منها إلي الأمجاد. لأنه هناك "محا الصك الذي علينا في الفرائض الذي كان ضداً لنا وقد رفعه من الوسط مسمراً إياه بالصليب إذ جرّد الرياسات والسلاطين أشهرهم جهاراً ظافراً بهم فيه" (كو ٢:١٤، ١٥).

وهكذا أكد الصليب صدق يسوع. فعندما نادي قائلاً "تعالوا إليّ وأنا أريحكم" كان بحق يقدر أن يريح التعابي. ويقول عنه إشعياء "لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها ونحن حسبناه مصاباً مضروباً من الله ومذلولاً. وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا تأديب سلامنا عليه وبحبره

شفينا. كلنا كغنم ضللنا ملنا كل واحد إلي طريقه والرب وضع عليه إثم جميعنا" (إش ٥٣:٤-٦).

رفع يوحنا وجهه نحو الصليب ورأي الرب يسوع في قمة من المجد وقد ارتسمت علي وجهه ابتسامة عريضة. وتخيله يردد وهو هناك ما سبق أن قاله "روح الرب علي لأنه مسحني لأبشر المساكين أرسلني لأشفي المنكسري القلوب لأنادي للمأسورين بالإطلاق والعمي بالبصر وأرسل المنسحقين في الحرية" (لو ٤:١٨).

نزل يوحنا من فوق صخرة الجلجثة وهو في ملء الراحة والسلام. هنا فهم يوحنا ماذا كان يعني الرب يسوع عندما قال "وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إليّ الجميع" (يو ١٢:٣٢). وتأكد يوحنا أن الرب يسوع عندما ارتفع فوق الصليب قد ارتفع فوق العالمين وأنه بذلك أصبح ملكاً متوجاً علي عروش القلوب إلي الأبد. وأن ذلك الفارس الوديع لم يهزم بل إن ثورته التي بدأها سوف تمتد إلي أقاصي الأرض. بل إن الصليب نفسه سوف يكون المشعل الذي سيؤجج نيران الثورة في كل مكان ثورة من الحب، ثورة تحرر الإنسان من القيود التي تقيده إلي العالم، وتدفعه إلي الانطلاق في سماء الحب والنقاء.

أجذب إليّ الجميع...

لقد عاين يوحنا وهو فوق الجلجثة أمجاد الفداء وفي الوقت نفسه عاين أمجاد الفادي. لقد أدرك يوحنا كل البركات المذخرة لنا في الصليب، لكن

كل هذه البركات ما كنا لنحصل عليها لو أن الذي علق هناك كان شخصاً آخر. فما أكثر الصلبان وما أكثر الذين علقوا فوقها، لكن صليب الجلجثة صار صليباً فريداً مميزاً بعد أن علق عليه الرب يسوع. وهكذا فإن كان الرب يسوع قد حقق الخلاص فوق الصليب، لكن الصليب كشف في الوقت نفسه عن حقيقة شخصيته. وهنا تبرز أمامنا هذه الحقيقة الهامة أن الرب يسوع كشف عن حقيقة شخصه في مماته أكثر بكثير مما أظهر (طول) حياته!.. فبالرغم من أن حياته كانت حافلة بالكثير من المواقف السامية والإنجازات العجيبة والمعجزات المذهلة والأحاديث والأفعال الفائقة، لكن كل هذه ما، كانت لتكشف عن أعماق قلب يسوع الذي تكشّف عمق الصليب.

لهذا عندما سأله قوم من الكتبة والفريسيين قائلين "يا معلم نريد أن نري منك آية فأجاب وقال لهم جيل شرير وفاسق يطلب آية ولا تعطي له آية إلا آية يونان النبي لأنه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال" (مت ١٢:٣٨-٤٠).

لقد أراد هؤلاء القوم أن يروا آية ما تفوق كل ما قام به من قبل من آيات ومعجزات حتي يؤمنوا به، لكن الرب يسوع كان يدرك أن المعجزات لا تعطي إلا تأثيراً وقتياً فقط، وتسبب الانبهار الذي سرعان ما ينقضي. وكشف الرب يسوع عن هذه الحالة المأساوية عندما قال لهم في موضع آخر "الحق الحق أقول لكم إنكم تطلبونني ليس لأنكم رأيتم آيات، بل لأنكم

أكلتم من الخبز فشبعتم" (يو ٦:٢٦). والمعني واضح أن أولئك القوم لم يطلبوه لأنهم آمنوا بشخصه بل كانوا يطلبونه ليملأوا بطونهم.

لهذا فإن كان الرب يسوع قد قام بالكثير من المعجزات العجيبة، لكنه لم يرد أن يؤسس ملكوته علي أساس أنه رجل المعجزات. فلقد استطاع السحرة أن يحاكوا موسي فتقسي قلب فرعون. لكن الرب يسوع أراد أن يؤسس الإيمان به علي معرفة حقيقة شخصه.

ولقد كان السيد يعرف أن الصليب هو المفتاح الوحيد الذي يستطيع أن يكشف للعالم عن حقيقة شخصه. فإن قمة القداسة ما كانت لتظهر إلا فوق قمة النجاسة، وقمة الحب ما كانت لتظهر إلا فوق قمة العداوة، وقمة الجود والصلاح ما كانت لتظهر إلا فوق قمة الخبث والشر. لهذا قال في تحد وفي ثقة أيضاً، جيل شرير وفاسق يطلب آية ولا تعطي له آية إلا آية يونان النبي.

ونحن لا يمكننا أن نمر مروراً عابراً علي هذه الحقيقة المذهلة. فلقد كان هدف الأعداء أن يمحوا اسم يسوع بواسطة الصليب. أرادوا أن يشوهوا جماله ويحطموا صورته. إن نيران الصليب تقدر أن تصهر أعظم العمالقة، وهكذا اعتقدوا أن يسوع، عندما يعلق هناك، سوف يتخلي عن كماله، ويلعن صالبيه كما فعل اللصان اللذان صلب وسطهما. وهكذا يحل العار بيسوع وتنمحي صورته إلي الأبد...

لكن شدة النيران أثبتت أنه الصخر الكامل صنيعه، بل إن الجلدات

والأشواك والمسامير والطعنات لم تكشف إلا أعماقاً من الحب ما كانت لتظهر إلا هناك. لذا قال السيد مسبقاً "متي رفعتم ابن الإنسان فحينئذ تفهمون إني أنا هو" (يو ٨:٢٨). وكأني به أراد أن يقول إن كل ما أنجزته في حياتي من معجزات وكل ما تحدثت به من إعلانات وكل ما ألقيته من عظات، إن كل هذه لا يمكن أن تكشف أعماقي. هناك أعماق بعيدة لم تستطع الحياة أن تعلنها لكنكم ستدركون شيئاً عنها في مماتي...

إن الصليب هو ختم ألوهية يسوع لذا قال مؤكداً "متي رفعتم ابن الإنسان فحينئذ تفهمون إني أنا هو.."

ومن العجيب أن الرب يسوع وجه هذا الحديث لأعدائه الذين كانوا متحفزين لقتله. وكأني به كان يقول لهم، لكم أنتم أيها الأعداء الذين سيحلو لكم أن تكللونني بالشوك والذين ستستعذبون جلدي ودقي بالمسامير والتفنن في إيقاع العذاب بجسدي، لكم أنتم أيها الأعداء سوف أكشف عن حقيقة ذاتي، في نفس الوقت ونفس المكان... "متي رفعتم ابن الإنسان فحينئذ تفهمون إني أنا هو..."

ومن العجيب أن كلام الرب يسوع تم حرفياً إذ يقول متي البشير "وأما قائد المئة والذين معه يحرسون يسوع فلما رأوا الزلزلة وما كان خافوا جداً وقالوا حقاً كان هذا ابن الله" (متي ٢٧:٥٤).

وبعد، أليس هذا هو المجد؟...

إن الرب يسوع يؤكد أنه لا توجد خصومة من جهته مهما صنع به البشر. مهما عملوا به، مهما عذبوه وأظهروا له كل كراهية وحقد، في نفس اللحظة يكشف لهم عن أعماق الحب...

علي أنه كان في نفس الوقت أيضاً يؤكد لهم في عظمة وجلال أنه لا يمكن أن يهزم ولا أن يتحول أو يتغير. وكأني به يقول لهم إنكم ستحاولون أن تحطموني وأن تقتلوني وأن تقبروني، لكنكم لن تقدروا أن تحطموا إلا القشرة الخارجية فقط.

إني فوق الصليب كما أنا قبل الصليب ومن بعده، أنا هو بهاء مجد الله ورسم جوهره وحامل كل الأشياء بكلمة قدرتي... (عب ١:٣).

الفصل الثالث

أنا هو الحياة

هل أنت هو المسيح؟!...

عندما ولد يسوع أخذ هذا السؤال يتردد ومازال حتي يومنا هذا. فالقضية العظمي المطروحة اليوم وكل يوم هي، لمن ينبغي أن نقدم السجود والشكر والتسبيح والتعبد؟.. هل ينبغي أن نسجد وأن نتعبد ليسوع ونسلّم له مقاليد أمورنا وكل حياتنا؟.. أي هل يسوع الناصري هو المسيح ابن الله حقاً؟.. هذه هي القضية العظمي التي كانت مطروحة بالأمس ومازالت مطروحة علينا اليوم، سواء عرفنا أم لم نعرف وسواء اهتممنا أم لم نهتم...

ثقوا أنا هو...

هكذا أجاب الرب يسوع علي هذا السؤال بكل صراحة وبكل وضوح. ولقد جاءت إجابته هذه وهو واقف بكل جلال ومجد وشموخ فوق أمواج البحر الهائج. وجاء صوته واضحاً جلياً إلي التلاميذ وسط الأعاصير والرياح العاصفة. لكن الرب يسوع لم يجب علي هذا السؤال فقط بإعلاناته القوية الحاسمة لكنه أجاب بما هو أقوي من كل كلام وبيان. لقد نقش الرب يسوع إجابته علي صفحات التاريخ بمداد لا يمحي لأنه كتب بمداد حياته، التي أظهر فيها بكل جلاء أنه حقاً الإله القدير، قدوس الله، الذي أشع فيها بمجد لا نظير له كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً..

لكن ما الهدف من كل ذلك؟.. هل جاء يسوع إلي عالمنا ليثبت لنا حقيقة ألوهيته فقط؟... وإن تحقق له ذلك فما الفائدة، له ولنا؟.. فإنه بالرغم من أن الإنسان يعترف بحقيقة وجود الله فإن لسان حاله كان دائماً

يقول "ابعد عنا وبمعرفة طرقك لا نسر. من هو القدير حتي نعبده وماذا ننتفع إن التمسناه" (ايو ٢١:١٤، ١٥).

إن الإحساس بوجود الله يولّد الخوف ويثير الرعب ويدفع الإنسان للهروب من أمامه. وفي هذا يقول الرسول بولس "لأنهم لما عرفوا الله لم يمجدوه أو يشكروه" (رو ١:٢١). وعندما قابل الرب يسوع المجنونين اللذين كان بهما روح نجس إذا بهما يصرخان قائلين له "مالنا ولك يايسوع ابن الله. أجئت إلي هنا قبل الوقت لتعذبنا" (مت ٨:٢٩).

إذاً، فإن كان مجيء الرب يسوع إلي عالمنا لمجرد تأكيد ألوهيته فإنه ما كان ليفيد البشرية شيئاً. فعندما شاهده التلاميذ ماشياً فوق الأمواج الهائجة فزعوا. ولقد أراد السيد أن يهدئهم وناداهم قائلاً "ثقوا أنا هو لا تخافوا" (مر ٦: ٥٠). ومع ذلك ظل التلاميذ في اضطراب عظيم إذ ظنوه خيالاً. لكن مخاوفهم تبددت، وحل بالتلاميذ السلام عندما خطا السيد داخل السفينة الصغيرة وانحشر وسطهم والتصقّ بهم والتصقوا هم به.

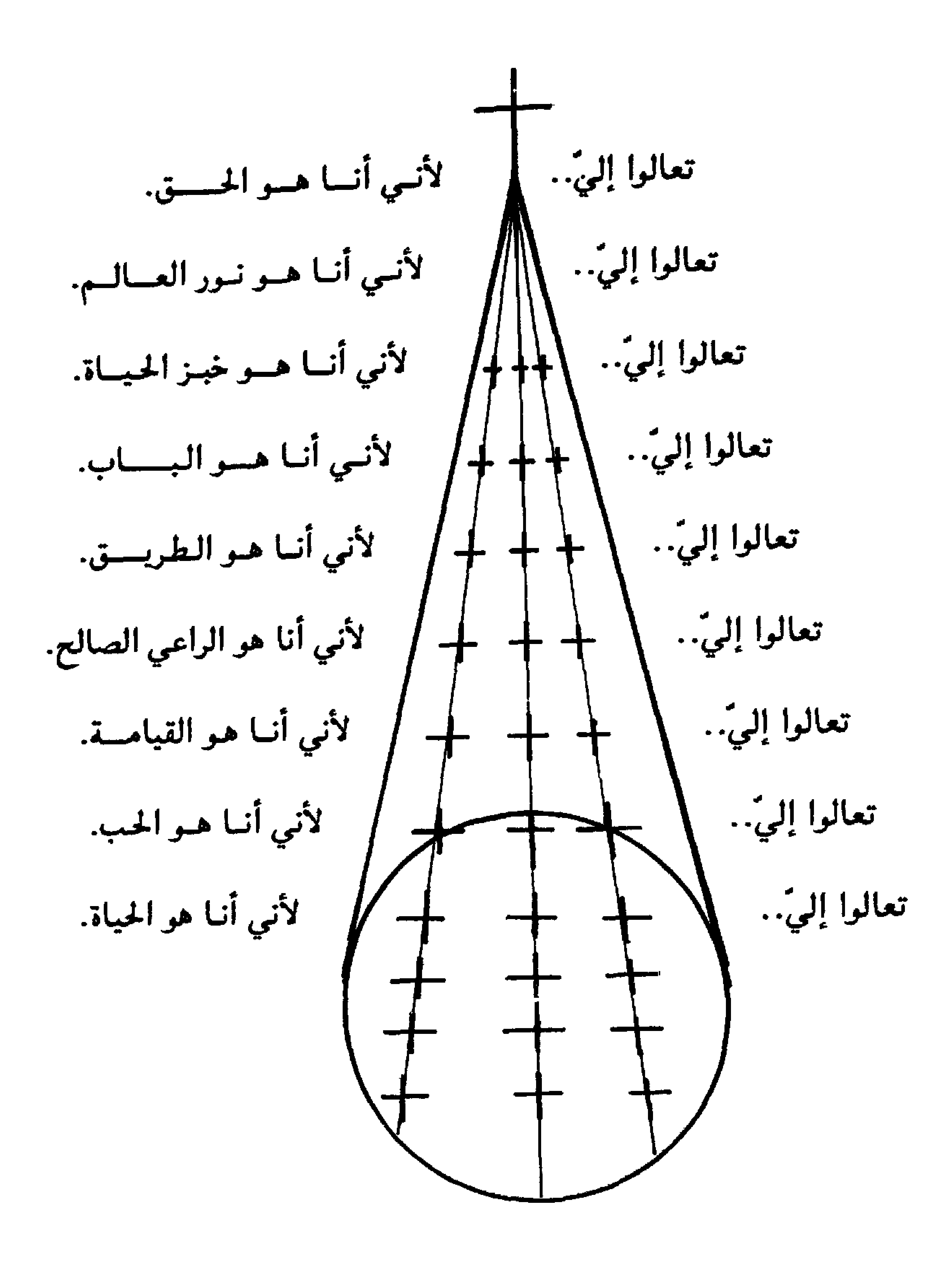
هنا تذكر التلاميذ كلمات يشوع التي كثيراً ما رددها لبني إسرائيل قائلاً "الصقوا بالرب إلهكم" (يش ٢٣:٨) لكن الشعب لم يلتصق بالرب بل التصقوا بآلهة غريبة من صنع أيديهم. لقد عبدوا الجمال والقوة وكانت هذه الآلهة تستجيب لغرائزهم وشهواتهم. لهذا كان من السهل أن يلتصقوا بها، أما الله القدوس فلم يقدروا أن يسيروا وراءه. وهل كان من الممكن أن يلتحم الإنسان الترابي بالساكن فوق الغمام؟!.. وهل كان من الممكن أن يلتصق

المائت بالإله الحي السرمدي؟!.. أن يتحد الخاطيء بالقدوس؟!..

ومن الواضح أن الرب يسوع لم يرد أن يؤكد للعالم ألوهيته فقط ولكنه فوق كل شيء أراد أن يحقق الالتحام بينه وبين الإنسان.

ولا شك أن هذا كان أمراً شاقاً وصعباً. لكن هل يعسر علي الرب شيء؟... ولقد حقق الرب يسوع هذا الالتحام بطريقة عجيبة ومثيرة. لقد حققه بواسطة الصليب. ولا شك أن الناس قد اعتقدوا أن الصليب هو نهاية يسوع لكن يسوع كان يجد فيه الوسيلة التي يحقق بها هدف حياته. واليوم نحن نري أن تلك الخشبة التي علق عليها الفادي قد غاصت في وجدان العالم إلي الأبد، وأن الدماء التي سالت منذ ألفي عام مازالت حية تتدفق في كل اتجاه. بل إننا نحس أن ذلك الصياد العظيم قد طوّق العالم بشبكة قرمزية رائعة، شبكة من الصلبان المتصلة والمتشابكة، تجذبه وتشده بكل قوة إليه.

ومن تلك الشبكة القرمزية تتصاعد أنغام عذبة شجية تملأ أصداؤها كل الوجود. وفي كل نبرة نسمع صوت يسوع الحلو ينادي قائلاً: "تعالوا إليّ..."



تعالوا إليّ..
لأني أنا هو الحق.
تعالوا إليّ..
لأني أنا هو نور العالم.
تعالوا إليّ..
لأني أنا هو خبز الحياة.
تعالوا إليّ..
لأني أنا هو الباب.
تعالوا إليّ..
لأني أنا هو الطريق.
تعالوا إليّ..
لأني أنا هو الراعي الصالح.
تعالوا إليّ..
لأني أنا هو القيامة.
تعالوا إليّ..
لأني أنا هو الحب.
تعالوا إليّ..
لأني أنا هو الحياة.

١- أنا هو الحق

في موكب الشكوك والحيرة والاضطراب نادي يسوع "أنا هو الطريق والحق والحياة" (يو ١٤: ٦). وقد جاء هذا الإعلان الهام عندما سأله توما في انزعاج قائلاً "يا سيد لسنا نعلم أين تذهب فكيف نقدر أن نعرف الطريق" (يو ١٤: ٥). وهنا جاء هذا الإعلان الهام ليبدد الشكوك وينزع المخاوف وينير الطريق لتلاميذه ولكل الأجيال المقبلة...

عندما تساءل توما قائلاً "يا سيد لسنا نعلم".. أجاب يسوع "أنا هو.." ولقد كان تساؤل توما هذا نتيجة طبيعية لتصريحات السيد الكثيرة التي أدلي بها مؤكداً أنه ذاهب لا محالة. فقد قال "يا أولادي أنا معكم زماناً قليلاً بعد. ستطلبونني وكما قلت لليهود حيث أذهب أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا" (يو ١٣: ٣٣). وبعد قليل سأله بطرس: "قال له سمعان بطرس يا سيد إلي أين تذهب أجابه يسوع حيث أذهب لا تقدر الآن أن تتبعني ولكنك ستتبعني أخيراً" (يو ١٣: ٣٦).

أنا ذاهب... أنا ذاهب... هذا ما كان يردده يسوع خاصة في أيامه الأخيرة. وكانت كلماته مشبعة بالحزن والألم. لكنه في هذه المرة قالها يسوع وهو في غبطة وسعادة. قال "لا تضطرب قلوبكم أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي. في بيت أبي منازل كثيرة وإلا فإني كنت قد قلت لكم. أنا أمضي لأعد لكم مكاناً. وإن مضيت وأعددت لكم مكاناً آتي أيضاً وآخذكم إليّ حتي حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً. وتعلمون حيث أنا أذهب وتعلمون

الطريق" (يو ١٤:١-٤).

لقد اختلطت الأمور أمام توما فلم يفرق بين الحالتين عندما قال يسوع لبطرس "حيث أذهب لا تقدر الآن أن تتبعني" إنما كان يعني بهذا أنه ذاهب إلي الجلجثة أما عندما قال "أنا أمضي لأعد لكم مكاناً" إنما كان يعني أنه ماض إلي الآب. ولقد كان كلام السيد واضحاً في كلتا الحالتين. لكن حالة التشاؤم كانت سائدة علي التلاميذ لأنهم لم يريدوا أن يفارقهم السيد لحظة واحدة مهما كان السبب. إن الحياة بدونه لا تطاق...

كانت هناك شكوك كثيرة تحيط بهم ومخاوف رهيبة تهز كيانهم. ماذا يفعلون عندما يتركهم السيد؟.. وإذا كان هذا لابد وأن يكون إذاً فعليهم أن يستقصوا منه عن المكان وأن يتعرفوا علي الطريق. هكذا جاء ذلك السؤال الملح "يا سيد لسنا نعلم أين تذهب فكيف نقدر أن نعرف الطريق" (يو ١٤:٥).

ولقد كان الرب يسوع يدرك أن كلماته سوف تثير الشجن فقال في نغمة رقيقة "لا تضطرب قلوبكم.. أنا أمضي لأعد لكم مكاناً. وإن مضيت وأعددت لكم مكاناً آتي أيضاً وآخذكم إليّ حتي حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً وتعلمون حيث أنا أذهب وتعلمون الطريق". كانت كلمات الرب يسوع واضحة كل الوضوح لكن روح القلق كانت تسود التلاميذ، لقد أرادوا أن يعرفوا المكان ويتأكدوا بأنفسهم من الطريق. لكن ما قيمة هذه المعرفة وهل كان التلاميذ ليهنأوا في ذلك المكان بمفردهم وهل كانوا ليقدروا أن

يعبروا ذلك الطريق وحدهم. لقد قال الرب يسوع محذراً بطرس قائلاً "سمعان سمعان هوذا الشيطان طلبكم لكي يغربلكم كالحنطة ولكني طلبت من أجلك لكي لا يفني إيمانك" (لو ٢٢:٣١، ٣٢). إن الضمان الوحيد للإنسان ليس في معرفته للطريق بل أن يسير في أي مكان في حمي يسوع.

هذا عن الطريق، لكن ماذا عن المكان؟... لقد اعتقد توما أنه لا يحتاج لشيء ما بمجرد وصوله هناك.. لكن هل هذا صحيح؟.. وما فائدة المكان بدون المسيح؟..

إن الطريق كرْب لا يمكن لإنسان ما أن يجتازه بمفرده إن لم يحمله فيه المسيح.. والسماء أيضاً لا يمكن أن نحظي فيها بالسعادة إن لم يجالسنا فيها يسوع.. ويقول يوحنا الرائي "والمدينة لا تحتاج إلي الشمس ولا إلي القمر ليضيئا فيها لأن مجد الله قد أنارها والخروف سراجها" (رؤ ٢١:٢٣). بدون المسيح تصبح السماء ظلاماً. ولقد وصل المرنم إلي هذه الحقائق منذ القديم فقال "من لي في السماء ومعك لا أريد شيئاً في الأرض" (مز ٧٣:٢٥).

ونحن يجب أن نشكر "توما" لأنه لولا تساؤله لما سمعنا هذا الإعلان الذي يُعد أعظم الإعلانات.. عندما قال توما "يا سيد لسنا نعلم" قال يسوع "أنا هو" وبهذا كأني به يقول له، أنا هو وفي هذا كل الكفاية.. ولأني أنا هو لذا فأنا هو الطريق وأنا هو الحق وأنا هو الحياة... أنا كل شيء لك يا توما... وهنا كأني بالرب يسوع أخذ يردد ما سبق وقاله في القديم "لا

تخف لأني معك. لا تتلفت لأني إلهك. قد أيدتك وأعنتك وعضدتك بيمين بري" (إش ٤١: ١٠).

إذاً، لا تتساءلوا عن الطريق يكفي أن تعرفوا الرفيق، ولا تتساءلوا عن المكان يكفي أن تعرفوا الجليس...

أنا هو الحق...

"أنا هو" الغاية العظمي للإنسان...

"أنا هو" الذي أحيط به في كل مكان...

"أنا هو" نبع السعادة والنصرة والاطمئنان...

أنا هو الحق...

ولا شك أن التلاميذ لم يدركوا، في حينه، أبعاد هذه الكلمة وإلا لسقطوا علي وجوههم. فما من إنسان ادَّعي لنفسه هذه الصفة. ولقد كان الرب يسوع يدرك أن تلاميذه لا يمكنهم أن يستوعبوا كل الحقائق والإعلانات دفعة واحدة، لذا قال لهم "إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متي جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلي جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية. ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم" (يو ١٦: ١٢-١٤). وقال أيضاً "ومتي جاء المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي" (يو ١٥: ٢٦). كانت عيون التلاميذ مغلقة،

مثل بيلاطس الذي كان يتحدث مع يسوع ومع ذلك سأله "ما هو الحق". كذلك التلاميذ فإنهم لم يقدروا أن يستوعبوا كل ما كان يقوله لهم السيد، لذا قال لهم: "وأما متي جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلي جميع الحق" وقال في موضع آخر "وتعرفون الحق والحق يحرركم" (يو ٨:٣٢).

"أنا هو الحق"...

ومن الواضح أن الرب يسوع عندما قال هذا إنما أراد أن يؤكد للملأ أنه هو الله. "أنا هو الحق" أي أنا هو الصورة الحقيقية لله غير المنظور. وكانت تصريحاته في هذا الموضوع واضحة كل الوضوح عندما قال " الذي رآني فقد رأي الآب"... "صدقوني إني أنا في الآب والآب فيَّ" (يو ١٤:٩، ١١). "أنا والآب واحد" (يو ١٠:٣٠).

وفي هذا قال بولس الرسول بوحي من روح الحق "الذي هو صورة الله غير المنظور بكر كل خليقة. فإنه فيه خلق الكل ما في السموات وما علي الأرض ما يري ومالا يري سواء كان عروشاً أم سيادات أم رياسات أم سلاطين. الكل به وله قد خلق. الذي هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل" (كولوسي ١:١٥-١٧).

ولا شك أن كل هذا يزيد فينا الشوق لأن نقترب بكل خشوع من صورة الله غير المنظور متكلين علي "روح الحق" الذي قال عنه يسوع "إنه يأخذ مما لي ويخبركم...".

أنا هو الحق أي أنا هو الكائن الأزلي... الكائن بذاتي من البدء من عمق الأزل. وفي هذا قال هو عن نفسه "أنا هو الألف والياء البداية والنهاية يقول الرب الكائن والذي كان والذي يأتي القادر علي كل شيء" (رؤ ١:٨).

وقد أكد الرب يسوع حقيقة وجوده الأزلي عندما قال "الحق الحق أقول لكم قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن" (يو ٨:٥٨) فرفع اليهود الحجارة ليرجموه لأن كلمة "أنا كائن" تشير إلي الله سبحانه وتعالي. فعندما تراءي الله لموسي في البرية سأله موسي ما اسمك "فقال الله لموسي أهيه الذي أهيه" (خر ٣:١٤) أي أكون الذي أكون. لذا قال موسي عن الله "من قبل أن تولد الجبال أو أبدأت الأرض والمسكونة منذ الأزل إلي الأبد أنت الله" (مز ٩٠:٢). ولأن الرب يسوع هو الأزلي والأبدي فهو بذلك هو الله. ولقد أطلّ يسوع علينا من السماء ليؤكد هذه الحقيقة قائلاً "أنا هو الألف والياء البداية والنهاية" وعندما قال الرب يسوع "أنا هو الحق" كان يعني أيضاً أنه هو الموجود في كل مكان. فهو الذي قال "إن اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم" (مت ١٨: ٢٠). وقال أيضاً وها أنذا معكم كل الأيام وإلي انقضاء الدهر" (مت ٢٨: ٢٠).

وعندما قال أنا هو الحق كان يعني أيضاً أنه الإله الخالق ذو العظمة والقدرة والسلطان. وعنه قال دانيال "فأعطي سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة. سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته مالا ينقرض" (دانيال ٧:١٤). وفي بشارته للعذراء مريم قال الملاك "هذا

يكون عظيماً وابن العلي يدعي ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه ويملك علي بيت الإله كرسي داود أبيه ويملك علي بيت يعقوب إلي الأبد ولا يكون لملكه نهاية" (لو ١:٣٢، ٣٣). وكتب يوحنا إلي السبع كنائس قائلاً "نعمة لكم وسلام من الكائن والذي كان والذي يأتي ومن السبعة الأرواح التي أمام عرشه. ومن يسوع المسيح الشاهد الأمين البكر من الأموات ورئيس ملوك الأرض الذي أحبنا وقد غسلنا من خطايانا بدمه. وجعلنا ملوكاً وكهنة لله أبيه له المجد والسلطان إلي أبد الآبدين آمين" (رؤ ١:٤-٦).

أنا هو الحق... أنا هو صورة الله غير المنظور...

لكن يسوع عندما أطلق ذلك النداء لم يرد أن يرعبنا بل ليؤكد عظم حبه لنا، لأنه قال ذلك وهو في رباط الجسد ليكشف للعالم عن عظم تواضعه وتضحياته. ويؤكد الرسول هذا عندما قال "إذ كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله لكنه أخلي نفسه آخذاً صورة عبد صائراً في شبه الناس وإذ وجد في الهيئة كإنسان وضع نفسه وأطاع حتي الموت موت الصليب" (في ٢:٦-٨).

وهكذا فإن يسوع عندما قال أنا هو الحق، إنما أراد أن يقول في نفس الوقت أنا هو الحب حتي نستطيع أن نجد في ذلك الحق المحب راحتنا وسعادتنا.

أنا هو الحق... أنا هو الحب...

هذه هي حقيقة المعاني التي أراد الرب يسوع أن يعمقها داخل قلوبنا عندما أطلق هذا النداء. فالحق وحده مخيف ومرعب اهتزت أمامه الجبال وتزلزلت تحت قدميه الأرض، لكن من العجيب أن شيئاً من هذا لم يحدث عندما أتي يسوع إلي عالمنا. حتي فوق جبل التجلي عندما بدا الحق هناك في قمة من المجد والعظمة، كان وجهه كالشمس وصارت ثيابه كالنور ومع ذلك لم يرتعب التلاميذ لأن أشعة الحب كانت تنطلق من يسوع فأحسوا بجواره بالنشوة وغمرتهم الغبطة والسرور، فقال بطرس "يا رب جيد أن نكون ههنا!!..." (مت ١٧:٤).

كما أن الرب يسوع كان يؤكد أنه هو الحق وهو أيضاً الحب عندما أطلق ذلك النداء العظيم. فقبل أن يقول أنا هو الحق قال أنا هو الطريق، والطريق إلي الحق هو طريق الدم، طريق الصليب، طريق صنعه بالجسد المذبوح. إنه طريق الحب الدامي الذي يؤدي إلي الحق الذي فيه نجد الحياة.

أنا هو الحق... أنا هو الحب...

كما أن يسوع أراد أن يؤكد أنه هوالحق وهو الحب أيضاً حتي بعد أن صعد إلي السماء. هناك تراءي ليوحنا وهو في أوج من المجد والعظمة. كان وجهه كالشمس وعيناه لهيب نار، هذه صورة الحق دائماً. ويقول يوحنا "فلما رأيته سقطت عند رجليه كميت فوضع يده اليمني عليّ قائلاً لا تخف أنا هو الأول والآخر والحي وكنت ميتاً وها أنا حي إلي أبد الآبدين آمين ولي مفاتيح

الهاوية والموت" (رؤ ١:١٧، ١٨)

وهكذا أراد يسوع حتي وهو في عرشه أن يؤكد هذه المعاني مجتمعة معاً

أنا هو الحق.. أنا هو الأول والآخر

أنا هو الحب.. وكنت ميتاً.

إن الرب يسوع يريدنا أن نراه من كل هذه النواحي دفعة واحدة ليولد فينا مشاعر الخشوع والتعبد والراحة والسعادة.

أنا هو الحق... اخلع نعليك

أنا هو الحب... تعالوا إليّ

أنا هو الحق... أنا هو الحب

نداء يولّد الرهبة والخشوع، ويدعو للتعبد والخضوع ويبعث بالراحة والسعادة والسلام في كل الربوع.

٢- أنا هو نور العالم

"في البدء خلق الله السموات والأرض وكانت الأرض خربة وخالية وعلي وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف علي وجه المياه" (تك ١: ٢٥). هذا كان في البدء، لكن عندما جاء الرب يسوع إلي عالمنا لم تكن الأرض خربة أو خالية، لكن الظلمة الكثيفة التي كانت تغطي الأرض كانت أعظم من أن توصف!!...

والظلمة لم تكن مجرد ظلمة العقول المجدبة أو الظروف المجحفة، لكنها فوق كل شيء كانت ظلمة القلوب الآثمة.. ولقد جاءت هذه الظلمة البشعة نتيجة لكثافة الحجب التي فصلت بين الله والإنسان. ولقد صوّر إشعياء هذه الحالة المأساوية عندما قال "ها أن يد الرب لم تقصر عن أن تخلص ولم تثقل أذنه عن أن تسمع. بل آثامكم صارت فاصلة بينكم وبين إلهكم وخطاياكم سترت وجهه عنكم حتي لا يسمع. لأن أيديكم قد تنجست بالدم وأصابعكم بالإثم. شفاهكم تكلمت بالكذب ولسانكم يلهج بالشر. ليس من يدعو بالعدل وليس من يحاكم بالحق. يتكلون علي الباطل ويتكلمون بالكذب. قد حبلوا بتعب وولدوا إثماً. فقسوا بيض أفعي ونسجوا خيوط العنكبوت . الآكل من بيضهم يموت والتي تكسر تخرج أفعي. خيوطهم لا تصير ثوباً ولا يكتسون بأعمالهم. أعمالهم أعمال إثم وفعل الظلم في أيديهم. أرجلهم إلي الشر تجري وتسرع إلي سفك الدم الزكي. أفكارهم أفكار إثم. في طرقهم اغتصاب وسحق. طريق السلام لم يعرفوه وليس في مسالكهم عدل. جعلوا

لأنفسهم سبلاً معوجة. كل من يسير فيها لا يعرف سلاماً. من أجل ذلك ابتعد الحق عنا ولم يدركنا العدل. ننتظر نوراً فإذا ظلام. ضياء فنسير في ظلام دامس" (إش ٥٩:١-٩).

ما أبشع هذا الظلام، ظلام الخطيئة الذي جسَّمه إشعياء وكل ذلك كان نتيجة لأن آثامهم صارت فاصلة بينهم وبين إلههم.

لكن، في وسط هذه الظلمة المخيفة كانت النبوات تتوالي لتشجع هذا الشعب التائه البائس السالك في الظلمة والجالس في ظلال الموت، مؤكدة أن الفجر قادم لا محالة.

لم يهن علي الرب أن يترك الإنسان في ظلام الخطيئة وفي ظلال الموت فأرسل ليبشرهم بكوكب الصبح المنير الذي سوف يبزغ وإذا بالظلمة تتلاشي من نفسها. وفي هذا أخذ إشعياء ينادي قائلاً "الشعب السالك في الظلمة أبصر نوراً عظيماً الجالسون في أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور" (إش ٩:٢). ومن بعده جاء هوشع ليؤكد هذا المعني عندما قال "لنعرف فلنتتبع لنعرف الرب خروجه يقين كالفجر. يأتي إلينا كالمطر، كمطر متأخر ليسقي الأرض" (هو ٦:٣). ومن بعده أتي أيضاً ملاخي ليزيد هذا المعني تأكيداً. ومع أن الظلمة كانت قد وصلت إلي ذروتها نادي ملاخي قائلاً "ولكم أيها المتقون اسمي تشرق شمس البر والشفاء في أجنحتها" (ملا ٤:٢).

كان للشعب الجالس في الظلمة شوق وحنين لأن تتحقق هذه النبوات ومع طول الانتظار اعتصره اليأس وخيمت عليه الشكوك وأصبحت هذه الكلمات

تثير فيه الشجن بدلاً من أن تعطيه الأمل. لكن في الميعاد المحدد منذ الأزل أتي السيد إلي هيكله بغتة ونادي قائلاً "أنا هو نور العالم من يتبعني فلا يمشي في الظلمة" (يو ٨:١٢).

ومن العجيب أن الرب يسوع أطلق هذا النداء في وسط الهيكل. ذلك الهيكل الذي امتلأ مرة بالسحاب وبمجد الرب ذلك الهيكل التي كانت تخفق له القلوب وترنو له العيون وتصبو له النفوس لتجد فيه الشبع وتجدد فيه الأمل. ذلك الهيكل الذي يجسم الكرامة والعزة والذي فيه تتلامس السماء مع الأرض. ذلك الهيكل بكل ما يجسم من قيم إذ به يتحول إلي قلعة ظلام بدلاً من منارة تشع بالنور، إلي مكان تحاك فيه الدسائس والمؤامرات، إلي ذلك الهيكل جاء يسوع ومن هناك نادي قائلاً "أنا هو نور العالم".. وكأني به يقول "إني هنا ومن هذا الهيكل أنادي لأؤكد أني متمسك بهيكلي وسوف أجعله دائماً منارة يتفجر منها الضياء...

"أنا هو نور العالم"...

عندما قال يسوع هذا كان ليؤكد أن الخطية لن تسودكم والظلمة لن تطغي عليكم. إن الغلبة هي دائماً لي.

وبهذا النداء كان يسوع يؤكد أيضاً أن الصراع الأزلي بين النور والظلمة قد دخل إلي معركة حاسمة.

وأن الخاتمة معروفة مسبقاً، فأنا هو نور العالم الذي سوف أبدد كل ظلام.

وفي هذا قال يوحنا "في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله. هذا كان في البدء عند الله. كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان. فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس. والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه" (يو ١:١-٥).

أنا هو نور العالم

ومن العجيب أن الرب يسوع أطلق هذا النداء بعد مواجهة عاصفة قامت بينه وبين الكتبة والفريسيين. حتي في بيت الله لم يتحرجوا أن يجربوه. وتتجسم شدة الظلام الذي ساد في ذلك الوقت عندما أحضروا إلي الهيكل امرأة أمسكت في زنا "ولما أقاموها في الوسط قالوا له يا معلم هذه المرأة أمسكت وهي تزني في ذات الفعل. وموسي في الناموس أوصانا أن مثل هذه ترجم. فماذا تقول أنت" (يو ٨:٣-٥).

إن ظلام الخطيئة التي كانت تعيش فيه البشرية لا يحتاج إلي تعريف . لكن الظلام الأبشع هو ظلام الكراهية والحقد الذي كان يخيم علي عقول وقلوب تلك الطبقة الضالة المضلة التي أرادت أن تحكم العالم باسم الدين وتمارس فيه كل سبل القمع والقتل والإرهاب...

لقد أراد الكتبة والفريسيون أن يصيبوا يسوع والمرأة بحجر واحد في مقتل. لكنه وبكل هدوء قال "من منكم بلا خطية فليرمها أولاً بحجر. ثم انحني أيضاً إلي أسفل وكان يكتب علي الأرض" (يو ٨:٧، ٨). ماذا كتب يسوع علي الأرض لا يقدر أحد أن يجزم، لكن نتيجة لهذا أخذ الجميع

ينصرفون. كل الحاقدين والهائجين المتعطشين للقتل وسفك الدماء انصرفوا في خجل وانكسار. "فلما انتصب يسوع ولم ينظر أحداً سوي المرأة قال لها يا إمرأة أين هم أولئك المشتكون عليكِ. أما دانك أحد فقالت لا أحد يا سيدّ. فقال لها يسوع ولا أنا أدينك. اذهبي ولا تخطئي أيضاً" (يو ٨: ١٠، ١١).

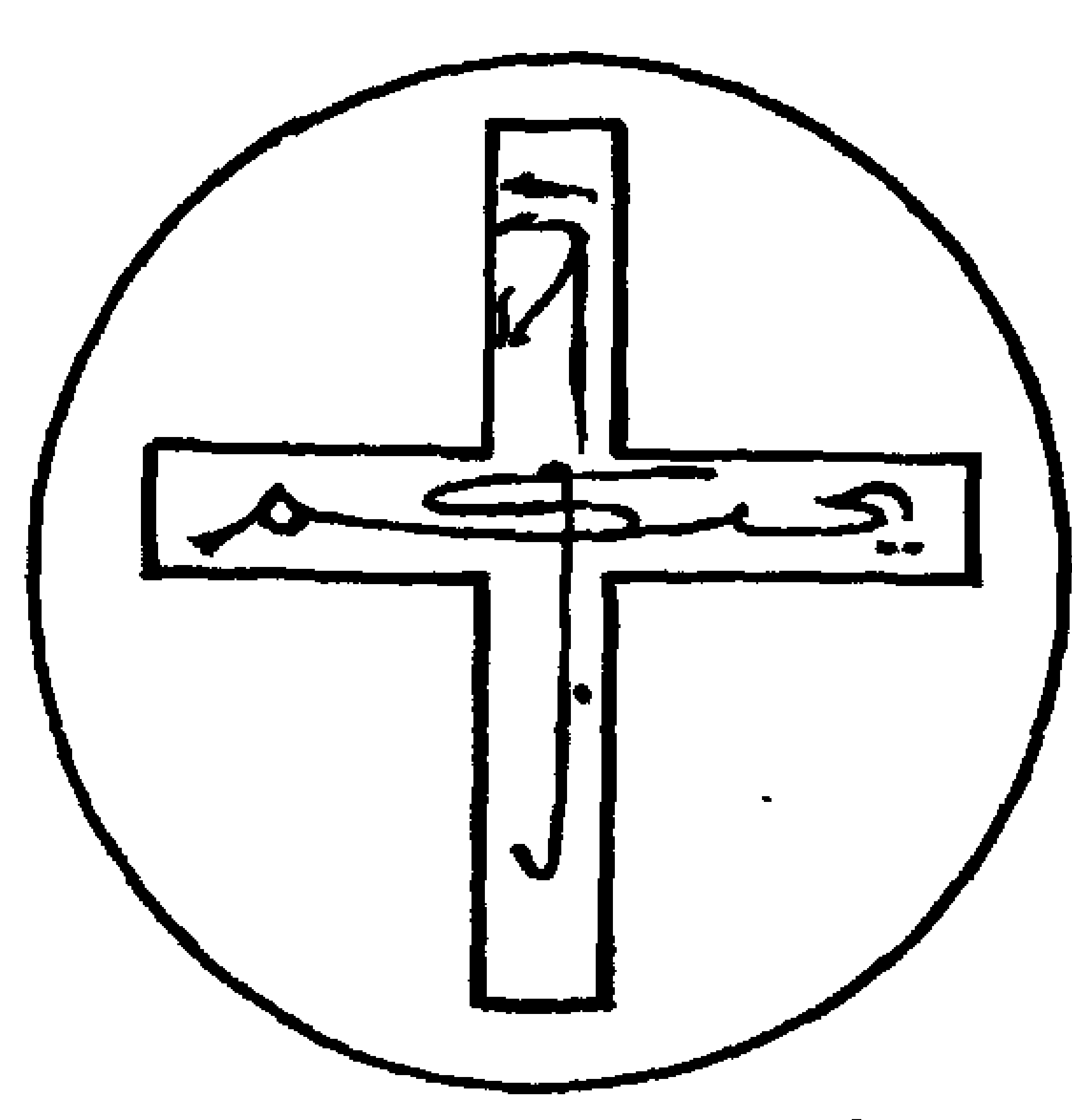
هنا يحلو لنا أن نردد "فيه كانت الحيوة والحيوة كانت نور الناس. والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه" (يو ١: ٤، ٥). نعم إن الظلمة لم ولن تدركه...

أنا هو نور العالم...

عندما أطلق يسوع هذا البيان الهام كان يؤكد أنه هو وحده مصدر النور الحقيقي الذي ينير العالم. لا يمكن لشخص ما أن ينير قلب الإنسان بالحب، ويهدي قدميه إلي الحق، وأن يضيء ضميره بكل ما هو صالح وجليل إلا الرب يسوع. وفي هذا قال يوحنا "كان النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتياً إلي العالم" (يو ١: ٩). وبهذا يؤكد أنه توجد أنوار زائفة مضلة وتعاليم خبيثة شريرة وطرق تبدو مستقيمة لكنها تقود إلي الهلاك.

إن الرب يسوع هو النور الحقيقي الذي يقدر أن ينير كل إنسان ويهديه إلي سواء السبيل. ويؤكد الرسول هذا الكلام عندما قال "لأن الله الذي قال أن يشرق نور في ظلمة هو الذي أشرق في قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح" (٢ كو ٤: ٦).

لكن كيف؟.. كيف أضاء يسوع العالم؟... لقد كانت حجب الخطية هي التي حجبت أشعة الشمس فساد الظلام. وكان علي الرب يسوع أن يحطم هذا السياج الكثيف الكئيب وما كان ليتم هذا إلا بعمله فوق الصليب. وهكذا فإننا نري أن الرب يسوع وإن كان قد أضاء العالم بتعاليمه وأقواله وأمثاله وإعلاناته وتنبوءاته وبكل مواقف حياته وأفعاله، لكنه فوق كل شيء أضاء العالم بذلك الإنجاز العظيم الذي أكمله فوق صخرة الجلجثة. هناك عندما دبت فيه النيران وهو معلق فوق عود الصليب توهج يسوع وسط هذه النيران بشكل عجيب وانطلقت منه الأنوار المبهرة التي مازالت تشع في دنيانا ببريقها ودفئها وضيائها وبهائها وجمالها. لقد تحطمت أمام هذه الأنوار العجيبة القوية كل حجب العداوة ومازالت تكتسح أمامها كل صخور الشر وقلاع الشكوك وقوي الظلام. وكأني بالرب يسوع وهو فوق الصليب كان يردد ما سبق وقاله في الهيكل بأكثر قوة قائلاً "أنا هو نور العالم من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة".



لقد أضاء يسوع الحياة والخلود

بالحب

وهكذا لم يكن يسوع مدعياً عندما قال أنا هو نور العالم. كان هو النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان.. كل إنسان.. ومن العجيب أن هذا النور لا يولّد الظلال مثل سائر الأنوار العالمية الأرضية - فأنوار العالم هي مثل أنوار الشموع التي عندما نشعلها إذا بالظلال الكثيفة والأشباح المخيفة تتراقص من حولنا. فكم قادتنا أنوار العلم المبهرة إلي اكتشاف أسلحة الدمار المرعبة ولكم قادتنا نظريات الوجودية والإباحية إلي التمزق النفسي والحروب المذهبية. أما نور يسوع فهو يضيء العالم دون أن يخلّف أي ظلال، ذلك لأنه النور الحقيقي الذي يضيء الإنسان من الداخل ومن كل اتجاه. إن نور يسوع يفتح البصائر ويدفيء القلوب ويلهب الضمائر ويسمو بالعقول ويطهر أعماق نفس الإنسان.

ولقد نجح الرب يسوع في إرساليته لذا قال الرسول "كنتم قبلاً ظلمة أما الآن فنور" (أف ٥:٨) ويؤكد قائلاً "الذي أنقذنا من سلطان الظلمة ونقلنا إلي ملكوت ابن محبته" (كو ١:١٣). ومنذ القديم يقول دانيال "والفاهمون يضيئون كضياء الجلد والذين ردّوا كثيرين إلي البر كالكواكب إلي أبد الدهور" (دا ١٢:٣).

لقد قال الرب يسوع "أنا هو نور العالم" ثم قال لتلاميذه "أنتم نور العالم" (مت ٥:١٤) هذه هي عظمة يسوع...

أنا هو نور العالم...

ولا شك أنه من المستحيل أن نعرف كل الجوانب التي أضاءها لنا المسيح

وأن نكتب عنها في هذا الكتيب الصغير. ولقد حاول الكثيرون من الفهماء والحكماء أن يستقصوا أبعاد تلك الأنوار المبهرة العجيبة التي هيمنت بطيفها الرائع الجميل علي عقولهم وسيطرت علي قلوبهم وأعماق وجدانهم، فقضوا العمر يحدقون فيها فإذا بتلك الأشعة تحملهم علي أجنحتها إلي آفاق سماوية عليا حيث التقوا بكوكب الصبح المنير. هناك علموا أنهم لم يدركوا ولن يستطيعوا أن يدركوا ذاك "الصانع أنواراً عظيمة" (مز ١٣٦: ١٠). "ساكناً في نور لا يدنى منه" (١ تي ٦:١٦).

ومع شدة التشوق أفني الكثيرون العمر في التحديق في "شمس البر" لكنهم اكتشفوا أن تلك الأشعة لم تصبهم بالعمي، لكنها في الواقع أعمتهم عن أمجاد الأرض الفانية وكشفت لهم عن أبعاد لا نهائية من الأمجاد والإعلانات السماوية الفائقة. لقد كان الرب يسوع صادقاً عندما قال "أنا هو نور العالم" ويقول الرسول بعد أن سار خلفه وعاشره السنين الطويلة قال "الذي أبطل الموت وأنار الحياة والخلود بواسطة الإنجيل" (٢ تي ١: ١٠). فيسوع هو قاهر الظلام واستطاع أن يشرق علي دنيانا بفجر جديد...

"أنار الحياة والخلود..."

إنها أبعاد تتخطي الزمن. ويلذ لي هنا أن أتتبع شعاعة واحدة من ذلك الطيف الجميل الذي أشرق به الرب يسوع علي دنيانا. لقد سلّط الرب يسوع الأنوار علي شخص الله وكان من أهم الأمور التي أضاءها لنا هي طبيعته وفكره وعلاقته بالإنسان.

كانت هذه أهم الجوانب التي سلط عليها الرب يسوع الأضواء. ومع ذلك نجد أن تصريحاته في هذا الأمر الهام لم تأخذ صورة المحاضرات اللاهوتية لكنه في كل مكان كانت تفيض منه التعاليم. كان في كل مكان هو النور الذي يضيء في الظلمة.

وكان من أعجب ما قال إنه وصف الله بأنه أب، إذ قال "كونوا كاملين كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل" (مت ٥:٤٨). وقال أيضاً "فصلوا أنتم هكذا. أبانا الذي في السموات" (مت ٦:٩). وقال أيضاً "فإنه إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضاً أبوكم السماوي. وإن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم أيضاً زلاتكم" (مت ٦:١٤، ١٥). وقال أيضاً "فليضيء نوركم هكذا قدام الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السموات" (مت ٥:١٦). وقال أيضاً "فلا تهتموا قائلين ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس. فإن هذه كلها تطلبها الأمم. لأن أباكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلي هذه كلها" (مت ٦:٣١، ٣٢). وقال أيضاً "وأما أنت فمتي صنعت صدقة فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك. لكي تكون صدقتك في الخفاء. فأبوك الذي يري في الخفاء هو يجازيك علانية" (مت ٦:٣، ٤). وقال أيضاً "سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك. وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلي مبغضيكم. وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم. لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات. فإنه يشرق شمسه علي الأشرار والصالحين

ويمطر علي الأبرار والظالمين" (مت ٥:٤٣، ٤٥).

وفي قمة إعلاناته قال لتلاميذه "لأن الآب نفسه يحبكم" (يو ١٦:٢٧).

وكأني به يريد أن يؤكد للعالم أن الله ليس إله الغضب والنقمة بل هو الآب العطوف الجواد. هو مصدر كل خير وبركة. هو يعتني بعصافير السماء وزنابق الحقول والوديان. هو الآب الذي يغمر خليقته كلها بالجود والإحسان...

"الآب نفسه يحبكم..."

أراد يسوع بهذا الإعلان أن يفجر ينابيع المحبة داخل الإنسان، ويكتسح من داخله كل نوازع الحقد والشر، ويولد داخله كل مشاعر الرقة والمحبة والصفح والغفران...

"الآب نفسه يحبكم..."

أراد يسوع بذلك أن يؤكد للإنسان أنه ليس وحيداً، بل إن الآب نفسه خالق الأكوان ما زال يسهر عليه لن يتركه ولن يهمله أبداً بل سوف يغلّفه بأنسجة حريرية من الرحمة، ويشده إليه بخيوط قرمزية من المحبة، ويغمره بفيض من إحساناته وجوده علي مدي الأيام.

"الآب نفسه يحبكم..."

هنا أراد يسوع أن يؤكد للإنسان حقيقة أخوة بني الإنسان مهما اختلفت

أشكالهم وألوانهم ومعتقداتهم في كل زمان ومكان...

"الآب نفسه يحبكم..."

بهذا الإعلان أراد يسوع أن يكشف للإنسان عن نبع لا ينضب للسعادة والفرح والبهجة والاطمئنان. ويصوّر النبي تلك المشاعر الفياضة للبهجة التي تنبع من وجود ذلك الآب المحب وسط شعبه فقال "لأنكم بفرح تخرجون وبسلام تحضرون. الجبال والآكام تشيد أمامكم ترنماً وكل شجر الحقل تصفق بالأيادي" (إش ٥٥:١٢).

"الآب نفسه يحبكم..."

هذا هو الموضوع الذي فجّر كل الألحان العذبة والسيمفونيات الرائعة والأناشيد الجميلة وبدونها لسادت دنيانا الظلمات.

إن أبوة الله وأخوّة الإنسان هي أجمل الورود في كل الوجود.

أنا هو نور العالم...

علي أن أبوة الله لم تكن شيئاً جديداً بل كانت معروفة منذ القديم. فلنسمع إشعياء وهو يتحدث إلي الله بدالة البنين قائلاً "تطلع من السموات وانظر من مسكن قدسك ومجدك. أين غيرتك وجبروتك. زفير أحشائك ومراحمك نحوي امتنعت. فإنك أنت أبونا وإن لم يعرفنا إبراهيم وإن لم

يذْرنا إسرائيل. أنت يا رب أبونا ولينا منذ الأبد اسمك" (إش ٦٣: ١٥، ١٦). وكأني بالله يجيب علي إشعياء ويقول "هل أفرايم ابن عزيز لديَّ أو ولد مسرّ. لأني كلما تكلمت به أذكره بعد ذكراً. من أجل ذلك حنّت أحشائي إليه رحمة أرحمه يقول الرب" (إر ٣١: ٢٠).

إن أبوة الله أبوة أزلية ومع ذلك كان في القديم يبدو بعيداً جداً وقد التحف بالغضب وبالضباب إلي أن أظهرت بكل جلاء "أحشاء رحمة إلهنا التي بها افتقدنا المشرق من العلاء ليضيء علي الجالسين في الظلمة وظلال الموت لكي يهدي أقدامنا في طريق السلام" (لو ١: ٧٨، ٧٩). وإن كان كلام زكريا هذا لم يعرف في وقته لكن لم تمض بضع سنوات قليلة حتي أدرك العالم ما معني "أحشاء رحمة إلهنا". وقال يوحنا "لأنه هكذا أحب الله "الآب" العالم حتي بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحيوة الأبدية" (يو ٣: ١٦) ويؤكد الرسول قائلاً "الله بيّن محبته لنا إذ ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا" (يو ٥: ٨).

لقد ظهرت كل أحشاء رحمة إلهنا في عمق الصليب.

ونحن نحتاج لأن نقضي العمر كله لنتأمل ونتأمل ونتأمل في أحشاء ربنا يسوع المسيح. لنتأمله في دموعه وعرقه وكفاحه وآلامه ودمائه. وإن كان الرسول قد قال عن الرب يسوع "الذي أبطل الموت وأنار الحياة والخلود بواسطة الإنجيل" (٢ تي ١: ١٠) فإن الرب يسوع قد فعل هذا بحياته وموته وقيامته.

وبعد، وإن كانت البشرية لا تعرف حتي الآن كل شيء عن الضوء وهي مازالت تبحث جاهدة لتعرف شيئاً عن مصدره وقوته وخصائصه وفوائده، كذلك نحن، فإننا سوف نقضي الدهر كيما نعرف شيئاً عن ذاك الذي قال عن نفسه بجدارة وصدق "أنا هو نور العالم".

وإن كانت قمة أضواء الحب قد انطلقت من فوق الصليب منذ ألفي عام فهي مازالت تنطلق من هناك عبر كل الأجيال وهي في ملء قوتها ومجدها. وهي مازالت تبدد الظلام وتبعث الحياة وتغير القلوب وتشفي المرضي وتقيم الموتي وتولّد الفرحة والبهجة...

نعم، إن الرب يسوع قد أضاء الحياة والخلود بالحب...

٣- انا هو خبز الحيوة

عندما قال الرب يسوع "أنا هو الحق" كان لابد وأن يقول أيضاً "أنا هو خبز الحياة" (يو ٦: ٣٥).

وإذا كان الخبز هو الذي يولّد الطاقة ويبعث الدفء ويساعد علي النمو والنضوج، فليس هناك إلا الحق الذي يمكنه أن يفعل كل هذا بالعقول والنفوس...

وإذا كان الباطل هو ضد الحق فلننظر إلي ما فعله الباطل في الأرض. ولقد جسّم الرسول هذه الأوضاع المأساوية عندما قال "لأن غضب الله معلن من السماء علي جميع فجور الناس واثمهم الذين يحجزون الحق بالإثم. إذ معرفة الله ظاهرة فيهم لأن الله أظهرها لهم. لأن أموره غير المنظورة تري منذ خلق العالم مدركة بالمصنوعات قدرته السرمدية ولاهوته حتي أنهم بلا عذر. لأنهم لما عرفوا الله لم يمجدوه أو يشكروه كإله بل حمقوا في أفكارهم وأظلم قلبهم الغبي وبينما هم يزعمون أنهم حكماء صاروا جهلاء وأبدلوا مجد الله الذي لا يفني بشبه صورة الإنسان الذي يفني والطيور والدواب والزحافات. لذلك أسلمهم الله أيضاً في شهوات قلوبهم إلي النجاسة لإهانة أجسادهم بين ذواتهم. الذين استبدلوا حق الله بالكذب واتقوا وعبدوا المخلوق دون الخالق الذي هو مبارك إلي الأبد آمين. لذلك أسلمهم الله إلي أهواء الهوان... ونائلين في أنفسهم جزاء ضلالهم المحق. وكما لم يستحسنوا أن يبقوا الله في معرفتهم أسلمهم الله إلي ذهن مرفوض ليفعلوا

ما لا يليق. مملؤين من كل إثم وزنا وشر وطمع وخبث مشحونين حسداً وقتلاً وخصاماً ومكراً وسوءاً. غمامين مفترين مبغضين لله ثالبين متعظمين مدعين مبتدعين شروراً غير طائعين للوالدين. بلا فهم ولا عهد ولا حنو ولا رضي ولا رحمة. الذين إذ عرفوا حكم الله أن الذين يعملون مثل هذه يستوجبون الموت لا يفعلونها فقط بل أيضاً يسرّون بالذين يعملون" (رو ١:١٨-٣٢).

لا يمكن أن تكون هناك صورة أكثر بشاعة من هذه، تكشف عما يحدث عندما تقتات الشعوب بالباطل. ولا شك أن الرسول عندما كتب هذا فإنه كان يتنبأ بحريق روما وانهيار الإمبراطورية الرومانية.

ولقد كان الرسول ينظر أيضاً بحسرة إلي ما حدث بشعبه وأمته عندما تركوا الرب إلههم. وكأني به كان يستعيد ما قاله إرميا عن تلك الأمة المتمردة حينما قال " هل بدلّت أمة آلهة وهي ليست آلهة. أما شعبي فقد بدلّ مجده بما لا ينفع. ابهتي أيتها السموات من هذا واقشعري وتحيري جداً يقول الرب لأن شعبي عمل شرين. تركوني أنا ينبوع المياه الحية لينقروا لأنفسهم آباراً، آباراً مشققة لا تضبط ماءً" (إر ٢:١١-١٥).

وهنا كان النبي يكشف عن حالة الشعب عندما ترك ينبوع المياه الحية وأخذ ينقر لنفسه آباراً مشققة لا تضبط ماءً. لقد أصاب الشعب الظمأ الشديد، لكن الشعب عوضاً عن أن يرجع لينبوع المياه الحية، كان في عناد يستهوي حفر الآبار المشققة- كانت هناك أباراً مشققة من الإباحية والمادية أوصلته إلي الحضيض، ويستطرد إرميا قائلاً "لأنه منذ القديم كسرت نيرك

وقطعت قيودك وقلت لا أتعبد. لأنك علي كل أكمة عالية وتحت كل شجرة خضراء أنت اضطجعت زانية" (إر ٢: ٢٠).

يا للعار.. هذا ما يصيب الإنسان عندما ينطلق إلي الكورة البعيدة بحثاً عن الملذات وعما يدّعيه من حرية زائفة. في تلك الحرية فإنه لا يتمرغ إلا في الوحل..

والإنسان في عناده يستمريء فقر الآبار المشققة فيزداد عطشه وجوعه وعريه وتجتاحه مشاعر المرارة واليأس والإحباط والإحساس بالضياع والتيه والقلق والغضب.

لم يعرف الإنسان أنه روح لا جسد. وأن نفسه داخله لن تجد ريها وشبعها إلا عند ينبوع المياه الحية. لذا كان نداء الرب لشعبه يدوي منذ القديم قائلاً "أيها العطاش جميعاً هلموا إلي المياه والذي ليس له فضة تعالوا اشتروا وكلوا. هلموا اشتروا بلا فضة وبلا ثمن خمراً ولبناً. لماذا تزنون فضة لغير خبز وتعبكم لغير شبع. استمعوا لي استماعاً وكلوا الطيب ولتتلذذ بالدسم أنفسكم" (إش ٥٥: ١، ٢).

وعندما جاء الرب يسوع وجد شعبه في قمة الضلال، مازال ينقر الآبار المشققة ومازال يزني تحت كل شجرة خضراء، ومازال يزن فضته لغير خبز وتعبه لغير شبع... وهنا نادي الرب يسوع قائلاً "أنا هو خبز الحياة من يقبل إليّ فلا يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً" (يو ٦: ٣٥). وكان الرب يسوع بهذا يؤكد للإنسان أنه روح لا جسد وأنه يحتاج إلي نوع آخر من

الخبز وإلي صنف آخر من المياه. ويؤكد هذا بقوله للسامرية "كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضاً لكن من يشرب من الماء الذي أعطيه أنا فلن يعطش إلي الأبد. بل الماء الذي أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلي حياة أبدية" (يو ٤:١٣، ١٤). لكن عيني المرأة السامرية كانت مغلقة لم تعرف أن يسوع يتكلم عن مياه روحية حلوة منعشة فياضة. كانت نظرتها عالمية مادية فقالت "يا سيد اعطني هذا الماء لكي لا أعطش ولا آتي إلي هنا لأستقي" (يو ٤:١٥).

وهكذا كان الحال أيضاً مع اليهود الذين كانوا يحتشدون حول يسوع فإنهم لم يسعوا وراءه من أجل شخصه بل من أجل هباته "ولما وجدوه في عبر البحر قالوا له يا معلم متي صرت هنا. أجابهم يسوع وقال الحق الحق أقول لكم أنتم تطلبونني ليس لأنكم رأيتم آيات بل لأنكم أكلتم من الخبز فشبعتم. اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي للحياة الأبدية الذي يعطيكم ابن الإنسان لأن هذا الله قد ختمه (يو ٦:٢٥-٢٧) هنا كان يسوع يؤكد أن الإنسان روح لا جسد، فالجسد يحيا علي الطعام البائد والروح يحتاج إلي الطعام الروحي الباقي. إن اهتمام الجسد هو موت أما اهتمام الروح فهو حياة (رؤ ٨:٦). كانت حمي المادة متغلغلة في نفوسهم فلم يعرفوا قصد يسوع، وعادوا يقولون "فأية آية تصنع لنري ونؤمن بك. ماذا تعمل. آباؤنا أكلوا المن في البرية كما هو مكتوب. أعطاهم خبزاً من السماء ليأكلوا" (يو ٦:٣٠، ٣١). لقد تعود اليهود أن يتدللوا علي الله وأرادوا أن

يسخروه ويستغلوه لإشباع مطامعهم ونزواتهم. أرادوا أن يطعمهم خبزاً من السماء ليستمروا في نزواتهم الجسدية الأرضية وهنا قال لهم يسوع "أباؤكم أكلوا المن في البرية وماتوا" (يو ٦:٤٩). لم يعطهم المن طول البقاء، بل إن المن نفسه أصابه العفن.

هنا جاءت الصدمة الكبري. فقد كانوا يعتزون جداً بأنهم أولاد إبراهيم وأن لهم التبني والمجد والعهود والاشتراع والعبادة والمواعيد (رو ٩:٤). إنهم الذين أكلوا خبز الملائكة، ومع ذلك يقول الكتاب إن بمعظمهم لم يسر الله وجثثهم سقطت في القفر!!.. (عب ٣:١٧).

من الواضح أن المن لم يقهم من الموت ولم يستطع أن يغير قلوبهم وأفكارهم، فبالرغم من أنهم أكلوا في البرية خبز السماء لكنهم كانوا يحلمون بالأيام التي قضوها في مصر "فعاد بنو إسرائيل أيضاً وبكوا وقالوا من يطعمنا لحماً. قد تذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجاناً والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم. والآن قد يبست أنفسنا. ليس شيء غير أن أعيننا إلي هذا المن. وأما المن فكان كبزر الكزبرة ومنظره كمنظر المقل.. وكان طعمه كطعم قطائف بزيت" (عد ١١:٥-٩). وفي مكان آخر يقول "وهو كبزر الكزبرة أبيض وطعمه كرقاق بعسل" (خر ١٦:٣١). ومع هذا تذمر بنو إسرائيل وقالوا "قد كرهت أنفسنا الطعام السخيف" (عد ٢١:٥).

والظاهر أن اليهود لم يدركوا أن هذا "الطعام السخيف" كانت تقدمه لهم طازجاً وكل يوم بيومه يد المحبة الأزلية. وقد وصف الكتاب هذه الموائد

السماوية في وصف رائع عندما قال "فكان في المساء أن السلوي صعدت وغطت المحلة. وفي الصباح كان سقيط الندي حوالي المحلة. ولما ارتفع سقيط الندي إذا علي وجه البرية شيء دقيق مثل قشور.، دقيق كالجليد علي الأرض... فقال لهم موسي هو الخبز الذي أعطاكم الرب لتأكلوا... لا يُبق أحد منه إلي الصباح. لكنهم لم يسمعوا لموسي بل أبقي منه أناس إلي الصباح. فتولّد فيه الدود وأنتن. فسخط عليهم موسي. فكانوا يلتقطونه صباحاً فصباحاً كل واحد حسب أكله" (خر ١٦:١٣-١٥، ١٩-٢١). وعن هذه المعجزات ترنم داود قائلاً "بسط سحاباً سجفاً وناراً لتضيء الليل. سألوا فأتاهم بالسلوي وخبز السماء أشبعهم. شق الصخرة فانفجرت المياه. جرت في اليابسة نهراً" (مز ١٠٥:٣٩-٤١).

كنت أعتقد أن هذه المائدة الملوكية الشهية كانت لتفجّر في أعماق ذلك الشعب كل المشاعر الفياضة من الحمد والشكر وتبعث فيهم روح الشبع والاكتفاء وتدفعهم للارتقاء عن كل ما يقدمه لهم العالم وتجعلهم يلتصقون أكثر فأكثر مع كل لقمة يمضغوها بذلك الواهب المنان الدائم الجود والإحسان. لكن للعجب تصاعدت أصوات التذمر بدلاً من أصوات الحمد وجرت دموع الحزن والأسي علي قدور اللحم وعلي القثاء والفجل والبطيخ!!..

يا للعار.. نسي إسرائيل سريعاً لسع السياط وكل أنواع المذلة والمهانة التي لاقوها في أرض مصر. آه.. هل أقول إن هذا الشعب استمرأ العبودية واستعذب الهوان. حتي إنهم بعد إن تحرروا ظلوا عبيداً في حريتهم، فلم

يستعذبوا نسيم الحرية في البرية وبكوا علي قدور اللحم!.. كنت أعتقد أنهم من قسوة ما لاقوه في أرض مصر أنهم كرهوا اللحم إلي الأبد... نعم كان يجب أن يكرهوا كل طعام شهي أكلوه في أرض العبودية ويفضلوا أن يعيشوا في الصحراء علي كسرة خبز يابسة، بل يفضلون الجوع والعطش، ما بالك بتلك المائدة السماوية التي كانت تفرشها لهم يد المحبة يومياً مقدمة لهم السلوي وخبز الملائكة طازجاً...

واليوم، فإن قدور اللحم تمثل كل أنواع المغريات والملذات التي يقدمها العالم للإنسان، وللأسف الشديد فإن الإنسان في جسدانيته وجهله وغبائه، مازال يبيع بكوريته ويضحي بكرامته من أجل وجبة عدس أو قدر لحم...

لذا، فإن الرب يسوع رفض أن يستمر في إجراء معجزة الخبز لأنه أراد أن يعلّم تابعيه أن ملكوت الله ليس أكلاً وشرباً. وعندما أتاه الشيطان ليجربه قائلاً "إن كنت ابن الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزاً. فأجاب وقال مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله" (مت ٤:٣، ٤).

لقد أراد الرب يسوع أن يؤكد للعالم أنه ليس بالخبز ولا بالمن ولا بالسلوي، ليس بكل هذه يحيا الإنسان... إذاً فبماذا؟!.. وعلي أي شيء يمكن أن يتغذي الإنسان حتي تتولد فيه الطاقة لينطلق فوق عالم المادة والشهوة إلي سماء النقاء والمحبة؟.. علي أي شيء يمكن أن يقتات الإنسان فيتولد فيه الإحساس المستمر بالشبع والشعور الدائم بالري، فلا ينبهر بما

يقدمه له العالم من مغريات ولا يجري وراء الشهوات والملذات.

ولقد كان الإنسان يحس بأنين النفس داخله ويتوق لأن يجد الطاقة التي ترفعه فوق العالم. ألم يقل الحكيم منذ القديم "النفس الشبعانة تدوس العسل"؟ (أم ٢٧:٧). نعم، إنها النفس الشبعانة هي التي تدوس العالم بعسله المسموم.. لكن أين يجد الإنسان هذا الشبع الدائم.. وهنا إذا بيسوع يقول له "أنا هو خبز الحيوة من يقبل إليّ فلا يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً" (يو ٦:٣٥). وهنا إذا بالجماهير في إلحاح تقول "يا سيد أعطنا في كل حين هذا الخبز" (يو ٦:٣٤). وهنا كأني بالشعب ينضم أيضاً مع السامرية ويقول "يا سيد أعطني هذا الماء لكي لا أعطش" (يو ٤:١٥).. يا سيد قد سئمنا كل طعام مادي لقد سئمنا حتي المن السماوي.. إن كل شيء مادي هو حقاً طعام سخيف...

لم يترك يسوع الإنسان في حيرة. بكل جلاء ووضوح قال "أنا هو خبز الحياة. آباؤكم أكلوا المن في البرية وماتوا. هذا هو الخبز النازل من السماء لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت. أنا هو الخبز الحيّ الذي نزل من السماء. إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلي الأبد. والخبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم" (يو ٦:٤٨-٥١).

هنا تصاعدت موجة عارمة من التذمر. كانت الصدمة قاسية. لقد طعن يسوع كبرياءهم عندما قال لهم "أباؤكم أكلوا المن في البرية وماتوا" لكن ما هو البديل؟.. وإذا بيسوع يقدم لهم بديلاً غامضاً. قدم لهم جسده

ليأكلوه!!.. هل هذا معقول؟.. فقالوا "كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل" (يو ٦:٥٣). إنه ولا شك شيء مستحيل. وكأني بهم يقولون وحتي إذا قدم لنا يسوع جسده فهل نقدر أو نقبل أن نأكله؟!. وحتي إذا أكلنا من جسد يسوع فما الفائدة؟.. ولا شك أن جسده لن يكفي إلا عدد ضئيل جداً فكيف يقول يسوع إذاً "والخبز الذي أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم"... "العالم"!!..

من الواضح أن الرب يسوع يريد أن العالم بأسره في كل مكان وزمان أن يقتات بجسده، فهل هذا معقول؟.. بل من العجيب أيضاً أن نسمع يسوع وهو يقول "إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلي الأبد"... "إلي الأبد" !!!.

كيف يمكن إذاً لذلك الجسد المحدود أن يصبح غير محدود وأن يعطي للزائل دوام الخلود؟!...

سرت البلبلة حتي في التلاميذ وقالوا إن هذا الكلام صعب. وهنا نظر يسوع إلي تلاميذه المتعثرين وقال لهم "أهذا يعثركم؟... الروح هو الذي يُحيي أما الجسد فلا يفيد شيئاً. الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة" (يو ٦:٦٢، ٦٣). لكن يبدو أن هذا الكلام لم يعطهم الراحة بل زاد من حيرتهم. تري هل أراد يسوع أن يتراجع عن تصريحاته الأولي أم أنه أراد أن يوجه أنظار تلاميذه إلي هذه الكلمة الغالية "أبذله". وكأني به كان يقولها بنبرات عالية جداً عندما قال "والخبز الذي أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم" أي أنه أراد أن يؤكد أنه سيبذل جسده بطريقة ما تجعله يشبع

العالم بأسره، وأنه ببذله هذا سيجعل هذا الجسد يشبع قلوبنا ويروي نفوسنا وأنه سيجعلنا عندما نأكل من جسده إنما نأكل معه روحه وأننا عندما نشرب من دمه فإننا نشرب معه من نفسه.

هل يمكن أن يفسر البذل هذا السر، حتي أن يسوع أخذ يؤكد قائلاً "لأن جسدي مأكل حق ودمي مشرب حق. من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه" (يو ٦: ٥٥، ٥٦).

ما أعظم الأسرار التي تحويها هذه الكلمات، وكان يوحنا وهو يسير خلف يسوع يستمع إلي كلامه في عجب. إن كلام يسوع يحوي أسراراً عجيبة لأن يسوع نفسه هو شخص عجيب. لكن ذلك الشخص العجيب كان قد امتلك قلب يوحنا وهيمن علي كل أفكاره ولبه، لذا كان يوحنا مستعداً أن يسير خلفه سواء عرف ما كان يتحدث عنه أم لم يعرف. وعندما دخل يوحنا إلي العلية ليأكل الفصح لم يعرف ما الذي كان يتحدث عنه سيده. كانت عواطف السيد جارفة وقال "شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم" (لو ٢٢: ١٥). تري هل أزفت الساعة التي يبذل فيها نفسه؟.. "وفيما هم يأكلون أخذ يسوع خبزاً وبارك وكسر وأعطاهم وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي. ثم أخذ الكأس وشكر وأعطاهم فشربوا منها كلهم وقال هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من أجل الكثيرين" (مر ١٤: ٢٢-٢٤).

كانت الأسرار تحيط بتلك المائدة العجيبة. ولقد رأينا كيف أن بطرس

انتابته حالة من الفزع والهلع عندما انحني السيد عند قدميه ليغسلهما، لكنه في نفس الوقت أكل من الخبز وشرب من الكأس بكل بساطة!!.

لم يدرك أحد المعاني الحقيقية التي تعنيها هذه المائدة.. وعندما صعد يوحنا فوق الجلجثة عاين السيد وقد تمزق جسده وسال دمه وأخذ يسترجع كلمات السيد الغالية التي تقول "هذا هو جسدي الذي يبذل عنكم... هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من أجل كثيرين... من يأكلني يحيا بي.." وهنا تملكته رعشة شديدة.. تري هل كان السيد يريد منه أن يقتات من جسده الممزق علي عود الصليب ويشرب من ذلك الدم الذي تدفق من جنبه علي صخرة الجلجثة؟..

رجع يوحنا إلي العلية وهو في شدة الحيرة والألم. وبعد ثلاثة أيام إذا بالسيد يقف في الوسط ويقول لهم جسوني. كانت الجراح قد التأمت ولم يتبق منها إلا آثارها.

كان يوحنا يتمسك بكل كلمة قالها سيده ويعتبرها أنها الحقيقة المؤكدة وإن كان لم يعرف معناها. إن الأيام تكشف هذه الأسرار بل هذه الكنوز المخفاة في الكلمة. لهذا أخذ يوحنا يعد المائدة كما أمره السيد. إن أوامر السيد يجب أن ينفذها بكل دقة. فها قد مرت الأيام طويلة بعد أن فارقهم السيد وصعد إلي السماء. أي شيء يمكن أن يشبع قلوبهم من بعده. لقد كان السيد يدرك قسوة الفراغ الذي سوف يعانون منه بعد أن يتركهم فقال "اصنعوا هذا لذكري". ما أعجب السيد وما أعظم حبه. لم يرد لأحبائه أن

يعانوا من قسوة الفراق فترك لهم هذه الفريضة العجيبة. تري هل تستطيع هذه المائدة أن تملأ الفراغ وأن تنعش النفوس فيحسون بوجود يسوع معهم؟.. هل هذا صحيح؟!..

بكل همة أخذ يوحنا يعد المائدة. وبينما كان يكسر الخبز أحس بأنه يرتقي فوق الجلجثة مرة أخري. هناك أخذ يسمع من جديد أصوات الضجيج المشحون بالشتائم والإهانات. وأخذ يسمع صوت المطارق وهي تهوي لتمزق جسد الحبيب، ورأي الدماء الغالية وهي تتناثر في كل مكان... أخذ يوحنا ينتفض ومع ذلك مد يده وأخذ من الخبز المكسور وأخذ يمضغه بهدوء، وهو يسترجع كل تلك المشاهد القاسية الأليمة، ويتأمل وجوه تلك الوحوش الآدمية التي مزقت جسد السيد. وإذا بيوحنا فجأة يتسمر في مكانه لا يقوي أن يمضغ اللقمة التي كانت في فمه. فجأة أدرك يوحنا أنه كان واحداً منهم. إنه كان من ضمن أولئك الذين مزقوا جسد السيد وسفكوا دماه...

آه، لقد كان يوحنا يظن أنه مجرد شاهد عيان، لذا كان وهو فوق الجلجثة ينظر بازدراء إلي تلك الوحوش الآدمية، لكنه عندما اختلي إلي نفسه، وعندما وضع اللقمة في فمه استيقظ ضميره فجأة وأدرك الحقيقة المرعبة، أنه كان من ضمن أولئك المجرمين السفاحين... وهنا أخذت كلمات السيد تتردد بكل وضوح في ذهنه عندما أخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً "اشربوا منها كلكم لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا" (مت ٢٦: ٢٧، ٢٨).

لقد نسي تلميذ يسوع أنه شخص خاطيء. ولم يظن أن السيد كان يعنيه هو بالذات عندما قدم له الكأس وأنه كان يعني أن ذلك الدم سيسفك لمغفرة خطاياه هو بالذات. لكن هذه الحقيقة ظلت غائبة عنه حتي أخذ من الكأس.

كان يوحنا قد أعد المائدة بكل إتقان سكب الخمر في كأس من ذهب، ووضع الخبز في أطباق من فضة، وغطي المائدة بمفارش من حرير. كان قد أتي ليأكل من المائدة وهو يلبس أفخر الثياب وإذ به فجأة يري نفسه عرياناً ووجد يداه تقطر دماً .. تقطر منها دماء السيد. هنا حاول يوحنا أن يخفي وجهه وأن يغمض عينيه، لكن وجه السيد أخذ يلاحقه، وأخذت صورة السيد وهو مكلل بالشوك تزداد وضوحاً أمامه.

هنا أراد يوحنا أن يهرب لكنه لم يقدر. لم يستطع يوحنا الهروب من أمام تلك المائدة العجيبة، وأخذ وابل من الأسئلة الملحة يتزاحم في أفكاره. تري هل أراد السيد من هذه المائدة أن تذكرنا به وأن تكشف لنا أيضاً عن شناعة خطايانا؟!... هل أرادنا كلما أكلنا من الخبز أن نأكل العلقم معه وكلما شربنا من الكأس أن نتذوق المر؟!... هل أراد السيد للإنسان أن يجتر دائماً آلامه وأن يهيج دائماً ضميره؟!.. هل أراد السيد أن يغرق الإنسان دائماً في التعاسة والأحزان؟!...

لم يجد يوحنا إجابة لهذه الأسئلة الصارخة وإذ به ينفجر في البكاء. بكي يوحنا طويلاً كما لم يبك من قبل، وفجأة أحس بالراحة. لأول مرة أحس يوحنا أنه يواجه نفسه علي حقيقتها. فقد كان كتلميذ المسيح يحس أنه من

الصفوة المختارة التي ترتفع عالياً فوق طبقة العشارين والخطاة. لم يكن مستعداً أن يقول عن نفسه كما قال زميله "صادقة هي الكلمة ومستحقة كل قبول أن المسيح يسوع جاء إلي العالم ليخلّص الخطاة الذين أولهم أنا" (١ تي ١:١٥).

كان يوحنا يحس أنه من المقربين إلي قلب يسوع وهذا جعله يشعر أنه فوق مستوي العالم. لقد مات المسيح من أجل العالم لكن ليس من أجله، إنه ليس خاطئاً مثل بقية الناس.

عندما أخذ يوحنا من الخبز المكسور انقشعت الغشاوة عن عينيه وأخذ ينظر للمصلوب من جديد. واندهش يوحنا أنه لم يدرك كل هذه المعاني حتي وهو واقف فوق الجلجثة. لم يحس يوحنا أن يسوع أخذ مكانه هناك وأنه حمل خطاياه في جسده علي الخشبة!!.. ومع كل الآلام التي أحس بها يوحنا لكنه أحس بشيء من العزاء الذي أخذ يتحول إلي فرح وسعادة. **إن اكتشافه لحقيقة نفسه جعله يكتشف حقيقة ما فعله يسوع من أجله.**

هنا أدرك يوحنا أن الحب لا يمكن أن يُبني إلا علي الصدق. والحب الحقيقي مهما كان رقيقاً لكنه في أعماقه دائماً صادق. ولقد كان يسوع يذوب رقة وعذوبة في ليلة الوداع. وتذكّر يوحنا كيف أخذ يسوع الخبز وكسّر وشكر. حقاً كيف شكر يسوع وهو يكسر الخبز؟!.. كيف قدم لهم الخبز المكسور وعلي شفتيه ابتسامة حلوة عذبة؟!... وكيف أنه أخفي عنهم هذه الحقيقة المريرة أنهم هم الذين كسروا جسده وسفكوا دماه، فقال بصيغة

مستترة "هذا هو جسدي المكسور..." "هذا هو دمي... الذي يسفك من أجل كثيرين". فقد كان يمكنه أن يقول إن هذا هو جسدي الذي كسرتموه، وهذا هو دمي الذي سفكتموه أنتم بشركم وبخطاياكم.

لقد أراد الرب يسوع في رقته البالغة أن يجنب تلاميذه آلام المواجهة القاسية. كانت المواجهة قادمة لا محالة، لكن السيد أراد لتلاميذه أن يدركوا بأنفسهم شناعة خطاياهم وأنهم ليسوا بأي حال أفضل من غيرهم. كان هذا لابد وأن يحدث لكن ليس في ليلة الوداع...

لقد كان يسوع في جلال يركّز علي الحب وليس علي الغدر، أن يبرز الصفح وليس الدينونة. فعندما كسّر الخبز بيده إنما كان يؤكد أنه قد وضع نفسه حباً وطوعاً. وهكذا فإنه عندما يقدم لنا الخبز المكسور فإنه لا يقدم مجرد كسرة خبز بل إنه يقدم معها روحه ونفسه، يعطينا ذاته وحبه. لقد قدم يسوع ذاته للعالم، عندما علق فوق الصليب. وفي هذا قال كاتب سفر العبرانيين "فكم بالحري يكون دم المسيح الذي قدم **نفسه** لله بلا عيب يطهر ضمائركم من أعمال ميتة لتخدموا الله الحي" (عب ٩:١٤).

وهنا ينبغي أن تبقي هذه الحقيقة الواضحة أمام أعيننا، إن يسوع قدم نفسه عندما صار خطية من أجلنا. فمن الواضح أنه لم يُكسر جسد الرب يسوع في معركة بطولية وسط إعجاب المشاهدين وتصفيق الجماهير. **لقد قام يسوع بأعظم عمل في التاريخ وهو في عار.** فوق خشبة العار صار يسوع خطية لأجلنا.

إذاً، لقد كانت ذبيحة الجلجثة وليمة حب. ويسوع عندما قدم لنا جسده المكسور فإنه يريد أن يأتي العالم أجمع ليغتذي بذبيحة حبه. إنه يريد أننا كلما أكلنا من الخبز نتأمل في عملية البذل حتي نكتشف في عمق الجراح قمة الحب. **ولا شك أن الإنسان سوف يأخذه العمر كله دون أن يصل إلي عمق الجراح ولا إلي قمم الحب...**

إذاً لا عجب إذا وجدنا أن هذه المائدة متجددة دائماً. لقد زهد اليهود المن وهذا ما يحدث مع كل شيء مادي. ألم يقل يسوع للسامرية "كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضاً ولكن من يشرب من الماء الذي أعطيه أنا فلن يعطش إلي الأبد" (يو ٤:١٣، ١٤). ولقد تأكد الإنسان من صدق هذه الكلمات علي طول التاريخ. إن كل بريق لابد وأن يخبو، وكل جمال لابد وأن يذبل، وكل شهوة لابد وأن تبطل، أما حب يسوع فهذا ما لا يمكن أن يخبو أبداً. إنه منارة عالية نورها يزداد بريقاً كل ما اقتربنا إليها، وقمة شاهقة تزداد روعة وجلالاً كلما دنونا منها، وهو نبع صاف يزداد حلاوة كلما نهلنا منه. إن حب يسوع هو بحر واسع من المياه الحلوة العذبة المحيية، بحر لا نهاية لحدوده وأبعاده وأعماقه.

وأنا لا أعلم ماذا كانت ستكون عليه حالتنا لو لم يأتنا هذا الخبز الذي نزل من السماء؟.. ماذا كان سيكون عليه حال الخطاة الذين سقطوا في أسر الخطية ولم يعرفوا كيف يتغلبون عليها؟.. وكيف يكون حال المعذبين في الأرض الذين كُتب عليهم أن يقضوا حياتهم في بؤس لأسباب كثيرة لا نهاية

لها؟.. بل ماذا يكون عليه حال الأغنياء الذين قضوا العمر في سعي محموم لاقتناء الثروات ليجدوا أنها في لحظة تطير؟.. وماذا يكون الحال مع العلماء الذين تعمقوا في كل فروع المعرفة والعلم ليجدوا أنهم لم يستطيعوا أن يشبعوا قلوبهم وأنهم مازالوا يحسون بالفراغ العظيم الذي لم يستطع العلم أن يملأه؟.. وماذا يكون الحال مع الجسدانيين الذين لا هم لهم إلا إشباع غرائزهم، وقدموا ذواتهم علي مذبح الشهوات والملذات دون أن يحصلوا علي السعادة والبهجة الحقيقية؟!!..

آه... من كل هذا يتأكد لنا أن الإنسان مهما اغترف من هذا العالم فهو يعاني من الشعور بالفراغ الشديد والإحساس بعدم الرضي والإحباط، كل هذا يدفعه إلي تعاطي المغيّبات والمخدرات وأقراص الهلوسة والانغماس في الجنس والاندماج في تلك الحفلات الصاخبة التي فيها يرقصون في حركات هستيرية ماجنة علي أصوات الموسيقي الصاخبة...

إلي هذا العالم الجائع والبائس جاء يسوع ونادي قائلاً "أنا هو خبز الحياة. من يقبل إليّ فلا يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً" (يو ٦:٣٥). وكأني به بندائه هذا كان يقول: "أيها الخطاة يا من وقعتم في أسر الخطية ولم تقدروا أن تتخلصوا من قيودها، أنا هو الخبز الذي يعطيكم القوة للتحرر والانتصار... ويا أيها البائسون الذين حرمتم من مقومات الحياة الرغدة الهنيئة أنا هو النصيب الصالح الذي لا يمكن أن ينزع منكم... ويا أيها الأغنياء والعلماء الذين أردتم أن تجدوا شبعكم في اكتناز الثروات وتحقيق

الإنجازات الضخمة دون فائدة، تعالوا أريحوا رؤوسكم علي صدري وأرووا نفوسكم وقلوبكم من نهر حبي...

أيها الإنسان مهما كنت تعال إلي العرس. خرافي ومسمناتي قد ذبحت. تعال لتستمتع بشخصي وتحظي بقربي.. تعال واطرح همومك علي صدري.. تعال.. تعال.. لنقتسم معاً كأساً جديدة ونشرب معاً خمراً من صنف آخر تبعث فيك الدفء والبهجة والانتعاش...

وإلي اليوم، مازال الملايين يخطون في كل إجلال ووقار ليتناولوا من ذلك الجسد ويشربون من ذلك الدم وهم يحسون في أعماقهم بصدق كلمات الرب يسوع "أنا هو خبز الحياة. من يقبل إليّ فلا يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً".

٤- انا هو الراعي الصالح

عندما نادي يسوع قائلاً "أنا هو الراعي الصالح" (يو ١٠ :١١) إنما أراد بذلك أن يكشف للجموع عن حقيقة شخصه وعن أهداف حياته. أراد السيد أن يعرّف بني إسرائيل عن أشواقه ويؤكد أنه جاء لينقذ ويخلّص "خراف بيت إسرائيل الضالة" (مت ١٥ :٢٤). وكانت حياة ذلك الراعي تؤكد حقيقة أهدافه. وفي وصف رائع سجل البشير متي وصفاً مركزاً لحياة يسوع عندما قال "وكان يسوع يطوف المدن كلها والقري يعلمّ في مجامعها. ويكرز ببشارة الملكوت. ويشفي كل مرض وكل ضعف في الشعب. ولما رأي الجموع تحنن عليهم إذ كانوا منزعجين ومنطرحين كغنم لا راعي لها" (مت ٩ :٣٥،٣٦).

كانت هذه هي حالة بني إسرائيل عندما أتي الرب يسوع. كانوا كما قال ميخا النبي "مشتتين علي الجبال كخراف لا راعي لها" (١ مل ٢٢ :١٧). وقد كشف إرميا النبي هذه الحالة المخيفة عندما قال "كان شعبي خرافاً ضالة قد أضلتهم رعاتهم. علي الجبال أتا هو هم ساروا من جبل إلي أكمة نسوا مربضهم. كل الذين وجدوهم أكلوهم" (إر ٥٠ :٦، ٧).

وفي إسهاب تكلم حزقيال عن الأوضاع الرهيبة التي كان يعاني منها شعب بني إسرائيل وعن الأسباب التي أدت بهم إلي تلك الحالة الحزينة فقال "كان إليّ كلام الرب قائلاً. يا ابن آدم تنبأ علي رعاة إسرائيل. تنبأ وقل لهم هكذا قال السيد الرب للرعاة. ويل لرعاة إسرائيل الذين كانوا يرعون أنفسهم. ألا يرعي الرعاة الغنم. تأكلون الشحم وتلبسون الصوف وتذبحون

السمين ولا ترعون الغنم. المريض لم تقوّوه والمجروح لم تعصبوه والمكسور لم تجبروه والمطرود لم تستردوه والضال لم تطلبوه بل بشدة وبعنف تسلطتم عليهم. فتشتت بلا راع وضارت مأكلاً لجميع وحوش الحقل وتشتت. ضلت غنمي في كل الجبال وعلي كل تل عال. وعلي كل وجه الأرض تشتت غنمي ولم يكن من يسأل أو يفتش" (حز ٣٤:١-٦).

كان هذا هو حال بني إسرائيل عندما جاء الرب يسوع. وفي هذا الجو الكئيب وفي وسط هذه الأوضاع المهينة الحزينة نادي يسوع قائلاً "أنا هو الراعي الصالح". وعندما سمع الشعب هذا النداء تجدد فيهم الأمل، وعادوا بذاكرتهم إلي الوراء إلي تلك الأيام التي كانوا يتمتعون فيها بتلك العلاقات الخاصة مع الله. أيام الشركة والمحبة. أيام كانوا فيها من فرط الإحساس بالدفء وعمق العلاقة السامية الوطيدة كان كل إنسان يقول بصدق "الرب راعيّ فلا يعوزني شيء في مراع خضر يربضني إلي مياه الراحة يوردني" (مز ٢٣:١). أيام كان يحس فيها الشعب بوجود الله الدائم وبجوده الغزير فكان كل الشعب يترنم في بهجة وسعادة قائلاً "اهتفي للرب يا كل الأرض. اعبدوا الرب بفرح. ادخلوا إلي حضرته بترنم. اعلموا أن الرب هو الله. هو صنعنا وله نحن شعبه وغنم مرعاه" (مز ١٠٠:١-٣).

لكن للأسف الشديد أن تلك الأيام الخوالي التي فيها كان إسرائيل يحس بالحظوة ويغني بكل تأكيد "نحن شعبه وغنم مرعاه" قد ولت، ولأن إسرائيل ترك الرب كانت النتيجة أن الرب تركهم.

وعندما جاء يسوع كانت تلك الحالة المأساوية قد وصلت إلي ذروتها. رآهم "منزعجين ومنطرحين كغنم لا راعي لها". وهنا نادي يسوع قائلاً "أنا هو الراعي الصالح". وعندما سمع الشعب هذا النداء دب فيه روح الأمل وأخذوا يهتفون قائلين "علي جبل عال اصعدي يا مبشرة صهيون. ارفعي صوتك بقوة يا مبشرة أورشليم. ارفعي لا تخافي. قولي لمدن يهوذا هوذا إلهك. هوذا السيد الرب بقوة يأتي وذراعه تحكم له. هوذا أجرته معه وعُملته قدامه. كراعٍ يرعي قطيعه. بذراعه يجمع الحملان وفي حضنه يحملها ويقود المرضعات" (إش ٤:٩-١١).

في ملء الزمان تحقق هذا الحلم الذي كان يداعب خيال الخراف الضالة وإذا بالرب يأتي حقاً بقوة ليجمع الحملان، وفي حضنه يحملها ويقود المرضعات. لقد تحقق الحلم وأصبح حقيقة. ونادي يسوع بصدق "أنا هو الراعي الصالح". آه، ما أعذب هذا النداء الذي جاء بعد ليالي العذاب.. أنا هو الراعي الصالح..

وعندما أطلق يسوع هذا النداء كان يدرك أن الشعب كان قد أصابه اليأس وحل به العذاب علي أيدي أجيال كثيرة من الرعاة الأشرار الذين تسلطوا عليهم، وكان كل همهم أن يرعوا أنفسهم دون أن يهتموا بالرعية. كان الشعب يعاني من أزمة الثقة وتجتاحه مشاعر اليأس والغيظ والكراهية نحو طبقة الفريسيين الذين كان كل همهم هو إذلال الشعب وسحقه تحت أثقال رهيبة من الوصايا والتعاليم الزائفة. فقال الرب يسوع "ويل لكم أيها

الناموسيون لأنكم تحمّلون الناس أحمالاً عسرة الحمل وأنتم لا تمسون الأحمال بإحدي أصابعكم" (لو ١١:٤٦). وفي مكان آخر قال "ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تأكلون بيوت الأرامل. ولعلة تطيلون صلواتكم لذلك تأخذون دينونة أعظم" (مت ٢٣:١٤).

في وسط هذا الجو الكئيب من الكراهية والغضب واليأس وقف يسوع ونادي الشعب البائس المطحون قائلاً "أنا هو الراعي الصالح". لكنه لم يسكت عند هذا الحد، لكنه كيما يبدد سحابة الشكوك وظلمات اليأس أردف قائلاً "والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف. وأما الذي هو أجير وليس راعياً الذي ليست الخراف له فيري الذئب مقبلاً ويترك الخراف ويهرب. فيخطف الذئب الخراف ويبددها. والأجير يهرب لأنه أجير ولا يبالي بالخراف . أما أنا فإني الراعي الصالح وأعرف خاصتي وخاصتي تعرفني. كما أن الآب يعرفني وأنا أعرف الآب. وأنا أضع نفسي عن الخراف" (يو ١:١١-١٥).

كانت صورة ذلك الراعي الصالح مختلفة كل الاختلاف. إن الأوسمة التي تزين صدزة أوسمة من دم. ولقد كانت الرعية تدرك أنها في ضعفها في مسيس الحاجة لمثل ذلك الراعي الأمين الذي عنده الاستعداد للدفاع عنها. إن مخاطر البرية لا نهاية لها والذئاب التي تحيط بالخراف والتي تريد أن تفتك بها لا حصر لها. لكن هل يوجد حقاً ذلك الراعي الأمين الوفي الذي يحس بأن الرعية هي جزء منه وهو بذلك مستعد أن يواجه المكاره ويخترق

الصعاب ويتحمل الآلام في سبيل الدفاع عنها ؟!..

لقد أحس الشعب أن الرعاة لا يحسون بقيمة الخراف وأدركوا صدق قول يسوع "وأما الذي هو أجير وليس راعياً الذي ليست الخراف له فيري الذئب مقبلاً ويترك الخراف ويهرب". إن علاقة الرعاة المزيفين بالخراف علاقة واهية، إنها ليست جزءاً من كيانهم، لذا فهناك حدود للكفاح لا يمكن أن يتخطوها، وعند أول بادرة للخطر فإنهم مستعدون أن يتركوا الخراف ويهربوا.

هنا يقف يسوع فريداً متميزاً فوق كل الرعاة وكل القيادات البشرية مهما كانت ومهما سمت. لقد ذاق يسوع الأهوال ودخل في أقسي المعارك ذوداً عن قطيعه. فحق له أن ينادي مؤكداً "أنا هو الراعي الصالح والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف". ويؤكد ثانية ويقول "وأنا أضع نفسي عن الخراف". لقد قبل يسوع أن يكون هو الراعي لذا فإنه قبل أن يواجه كل التحديات وأن يخوض أقسي المعارك وأشرسها للدفاع عن خرافه. وفي وسط المعارك تجلت تلك الصفات المطلقة التي لم توجد في إنسان قط. هناك ظهر الصبر الذي بلا حدود والأمانة الفائقة التي لا توصف. هناك ظهر الحب علي حقيقته، حب إلي المنتهي...

لقد واجه داود الأسد والدب وصارعهما وصرعهما في معركة بطولية للذود عن الغنم. أما يسوع فقد واجه الأبالسة في عقر دارهم. هناك فوق الجلجثة بذل نفسه حباً ليبيد مملكة الظلمة ويسحق كل جنود إبليس.

كراعٍ يرعي قطيعه، إنها عبارة منغمة حلوة جميلة، كثيراً ما يحلو لنا أن

نغنيها في سعادة وابتهاج، لكن ما من أحد ليدرك مقدار الأهوال التي قاساها ذلك الراعي الأمين حتي يمكن أن نتغني نحن بهذه الأنشودة الجميلة... بذراعه يجمع الحملان...

هنا ينبغي أن نعود ثانية إلي ذلك الوصف المؤلم للحالة التي كان عليها الشعب عندما جاء الرب يسوع. يقول البشير "ولما رأي الجموع تحنن عليهم إذ كانوا منزعجين ومنطرحين كغنم لا راعي لها" (مت ٩:٣٦). كان لابد وأن يصيب الأغنام الفزع ويحل بها الخوف عندما تجد أنها بلا راعي. لكن الأدهي والأمرّ أن الأغنام تسلط عليها رعاة أشرار كانوا أشر من الذئاب. "لهذا جاء عليهم كلام السيد الرب في حزقيال ٣٤ قائلاً "ويل لرعاة إسرائيل..".

في وسط هذا الجو المرعب الكئيب جاء يسوع ونادي قائلاً "أنا هو الراعي الصالح". وكان هذا النداء هو الأنشودة الحلوة التي أراد الشعب أن يسمعها من زمن بعيد، لكن لكثرة المعاناة وانعدام الثقة لم يبال الشعب بهذا النداء في باديء الأمر. لم يصدقوا ما سمعت أذانهم. ألم يقل يسوع "جميع الذين أتوا قبلي هم سراق ولصوص" (يو ١٠:٨). وكأني بالشعب من شدة المعاناة كان يهمس قائلاً: "ومن أدرانا". كنت أتخيل أن الشعب عندما سمع النداء أنهم يهرعون ويلتفون حول يسوع. لكن هذا لم يحدث في باديء الأمر. لقد تشتت الغنم. أضلتهم رعاتهم. علي الجبال أتاهوهم. ساروا من جبل إلي أكمة. نسوا مربضهم. وكانت النتيجة الحتمية لهذا الضلال "كل الذين

وجدوهم أكلوهم". (إر ٥ . ٧:٥).

كانت الغنم قد ضلت، بل استمرأت العيش في التيه والضلال في حرية زائفة وهي لا تعرف المهالك والمخاطر التي تتهددها. هوذا السيد يأتي بقوة...

كان لزاماً علي ذلك الراعي الصالح، كيما ينقذ قطيعه أن يأتي بقوة عجيبة حتي يقدر أن يهدم الظنون التي تفصله عن قطيعه ويحطم القيود التي تكبل خرافه وأن يبدد الظلمات التي تخيم علي عقولهم. ولقد تم كل ذلك فوق صخرة الجلجثة. هناك تأكد بلا منازع أن يسوع هو حقاً الراعي الصالح الذي يبذل نفسه عن الخراف. وفي عمق البذل انطلقت تلك القوة الهائلة العظيمة التي أزالت الأوهام وحطمت السجون وهدمت الظنون وبددت الظلام.

بذراعه يجمع الحملان.. إن اليدان المثقوبتان وحدهما هما اللتان استطاعتا أن تجمع الحملان لأن فيهما علامة الثقة والاطمئنان. في شتات التيه والضلال وجدت الخراف أخيراً أمنها وأمانها في حضن ذلك الراعي الصالح. لذا فإنها تمشي وراءه بكل ثقة واطمئنان.

وعندما تسير الخراف وراء ذلك الراعي، فإنها تجد أنه يربضها في مراع رائعة جميلة ويقودها إلي ينابيع مياه حية نقية. نعم هناك فرق شاسع بين ما يقدمه الراعي الصالح وما يقدمه الرعاة المزيفون لقطعانهم.

أنا هو الباب...

وعندما قال يسوع هذا الكلام، لم تجد كلماته هذه استحساناً لأول وهلة! فالخراف اعتادت علي التسيب وهي لا تدري أن الحرية الزائفة كانت تقودها إلي المهالك. وهنا كان يسوع ينبر أنه هو الباب لانطلاقة جديدة والدخول إلي مدرسة الحياة الجديدة مدرسة الحياة الأفضل، مدرسة الحب والنقاء.

هذه هي سمات تلك الحظيرة الجديدة التي يدخلنا إليها يسوع. والنفس البشرية طموحه للجري وراء نزواتها وشهواتها. لذا كان من السهل أن يضلها الرعاة الكذبة علي جبال شاهقة من العنصرية والكبرياء والمطامع الدنيوية، وفي وهاد عميقة من الدنايا والشهوات والموبيقات. وهنا نادي يسوع بصوت عال قائلاً، أنا يسوع المصلوب هو الباب لمدرسة الحياة الجديدة التي لا يوجد فيها تهاون مع الكراهية والجشع والحقد والتسيب والطمع والإباحية. إنها مدرسة هائلة تسمو بالنفس إلي رحاب سامية من الفضيلة. في حضن يسوع تجد الخراف الأمن والأمان وتجد أيضاً هذه المدرسة العظيمة السامية. في ذلك الحضن الدفيء يتعلم الإنسان كل شيء سام ومقدس ومجيد. وعندما نادت العروس قائلة "اخبرني يا من تحبه نفسي أين ترعي أين تربض عند الظهيرة" (نش ١:٧). فإنها كانت تعرف الإجابة مقدماً. إن ذلك الراعي الذي صار رأساً، وقد ارتفع فوق كل مستوي القادة والمصلحين،

كان يرعي قطيعه عند أنهار الفضيلة والنقاء، أنهار الصدق والوفاء، أنهار الحب والصفاء، إنها أنهار الخلود...

٥- أنا هو الطريق

عندما يضع الإنسان يده في يد السيد فإنه دائماً يعيش في انبهار. في كل مرحلة يحس أنه قد وصل إلي القمة، لكنه بعد قليل يكتشف أن هذه القمة إنما تقوده إلي قمة أسمي وأعلي. ألم يقل يسوع لنثنائيل "الحق الحق أقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون علي ابن الإنسان" (يو ١:٥). وهنا يتضح أن الرب يسوع بشخصه هو سلم يعقوب الذي يصل الأرض بالسماء. وكأنما أراد السيد أن يقول إنه أصبح للإنسان أن يصعد علي هذا السلم بعد أن صارت السماء مفتوحة ليدخل إلي حضرة الآب.

ولقد تهلل نثنائيل عندما سمع هذا الكلام. فالأشواق كانت تملأ قلب الإنسان للاقتراب إلي الآب. فقد قال داود "أما أنا فالاقتراب إلي الله حسن لي" (مز ٢٨:٧٣). لكن للأسف الشديد فإن هذه التطلعات والأشواق كانت أشواق مصدومة. كانت هناك هوة رهيبة من نيران الغضب تقطع هذا الطريق. والإنسان لا يمكن أن ينسي ما حدث عندما نزل الله علي الجبل ليكلم بني إسرائيل. "كان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق والجبل يدخن. ولما رأي الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد. وقالوا لموسي تكلم أنت معنا فنسمع ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت" (خر ٢٠: ١٨، ١٩).

مع كل هذه الذكريات المرعبة كانت هناك أشواق تجيش في قلب الإنسان للاقتراب إلي الله. وفي هذا قال داود "يا رب من ينزل في مسكنك. من

يسكن في جبل قدسك" (مز ١٥:١). كان هذا السؤال المطروح يعبر عن هذه الأشواق الجارفة والمصدومة أيضاً، لأنه حقاً من يستطيع أن يصعد إلي جبل الرب؟. وإن صعد فالسماء مغلقة. وبنفس المشاعر قال فيلبس للرب يسوع "ياسيد أرنا الآب وكفانا" (يو ١٤:٨). أرنا الآب.. أرنا الآب.. كانت هذه هي الطلبة الغالية التي كانت تجيش بقلب الإنسان.

ولقد كان الرب يسوع يعرف كل ما يجول في فكر وقلب الإنسان، لذا أجاب فيلبس وأجاب معه كل إنسان قائلاً: "أنا هو الطريق والحق والحياة. ليس أحد يأتي إلي الآب إلا بي" (يو ١٤:٦).

أنا هو الطريق.. أي أنا هو الطريق الوحيد والأوحد إلي قلب الآب. إنه ليس طريق الناموس أو الذبائح أو التقدمات أو أي عمل من الأعمال الصالحة. إن تلك الهوة الرهيبة المليئة بنيران الغضب لا يمكن لشيء ما أن يغطيها أو يعبر من فوقها إلا يسوع نفسه. وعندما قال يسوع أنا هو الطريق فإنه أراد أن يقول أنا الذي صنعت بجسدي هذه القنطرة كيما يعبر عليها الإنسان إلي حضرة الآب. وفي هذا يقول كاتب سفر العبرانيين "فإذ لنا أيها الإخوة ثقة بالدخول إلي الأقداس بدم يسوع طريقاً كرّسه لنا حديثاً حياً بالحجاب أي جسده وكاهن عظيم علي بيت الله. لنتقدم بقلب صادق في يقين الإيمان مرشوشة قلوبنا من ضمير شرير ومغتسلة أجسادنا بماء نقي. لنتمسك بإقرار الرجاء راسخاً لأن الذي وعد هو أمين" (عب ١٠:١٩-٢٣).

وهنا كأني بالرسول يريد أن يؤكد أن هذا الطريق الوحيد مصنوع من

جسد يسوع الحي. إنه الجسد المصلوب والمقام. ونحن يجب أن نتنبه إلي كلمة "حياً".. لأن المسيح "أسلم من أجل خطايانا وأقيم لأجل تبريرنا" (رو ٤:٢٥). ويقول عنه أيضاً "الذي مات بل بالحري قام أيضاً الذي هو عن يمين الله الذي أيضاً يشفع فينا" (رو ٨:٣٤).

إنه إذاً طريق الدم، طريق المصلوب المقام، إنه طريق مكرس حديث حي. وهنا يكشف لنا الرسول كيف ينبغي أن نسير فوق هذا الطريق. إننا يجب أن نتقدم بقلب صادق في يقين الإيمان مرشوشة قلوبنا من ضمير شرير ومغتسلة أجسادنا بماء نقي. أي أننا يجب أن نحذر عندما نتقدم لنمشي فوق هذا الطريق، إننا هنا نسير فوق جسد يسوع المصلوب الحي، وهذا يتطلب منا الصدق كل الصدق والطهر كل الطهر...

لذا فإن كل الذين ساروا فوق هذا الطريق أحسوا بالرهبة. لقد وجدوا أنفسهم في مسيس الحاجة لأن يسيروا فوق ذلك الجسد لكن كيف؟!.. فإنهم لا يقدرون أن يسيروا فوقه بأقدامهم، ووجدوا أنفسهم ينكفؤون علي وجوههم ويزحفون وهم ساجدون علي ركبهم في شعور عميق بالأسي وعدم الاستحقاق.

وبينما يسير الإنسان فوق هذا الطريق فإنه يحس بأن هناك تفاعلات سامية وعجيبة تحدث في أعماقه. إنها تفاعلات تولّد فيه روح الصدق والإخلاص وترقي به إلي سماء الطهر والنقاء. علي أن أعظم شيء يحدث للإنسان وهو يسير فوق هذا الطريق أنه يحس في كل خطوة يمشيها أنه يزداد

اتحاداً بذلك الجسد. إن ذلك الطريق يدفعه إلي الأمام ويلتف حوله من كل جانب ويحتويه من كل ناحية. إنه حقاً طريق حي عجيب.

لذا فنحن نتقدم في ثقة... في يقين الإيمان... في ضمير نقي... في شعور بالألم وعدم الاستحقاق.. وأيضاً في سعادة وأمل وابتهاج... لقد أصبح الطريق إلي قدس الأقداس مفتوحاً...

غير أن هذه البشارة العظيمة لم يكن لها، للوهلة الأولي، صداها. لأن الأقداس في العهد القديم هي ذلك المكان الذي يوجد فيه تابوت العهد. وكان ذلك المكان الرهيب لا يدخله إلا رئيس الكهنة فقط مرة واحدة في السنة ليس بلا دم يقدمه عن نفسه وعن جهالات الشعب (عب ٩:٧). ونحن هنا لسنا بصدد التحدث عن الأقداس في العهد القديم لأن طريق الدم يقود الإنسان في هذه المرة إلي أقداس أخري سماوية. وفي هذا يقول كاتب سفر العبرانيين "لأن المسيح لم يدخل إلي أقداس مصنوعة بيد أشباه الحقيقية بل إلي السماء عينها ليظهر الآن أمام وجه الله لأجلنا" (عب ٩:٢٤). ويعود الرسول ويقول بلهجة كلها بهجة وفرح "فإذ لنا رئيس كهنة قد اجتاز السموات يسوع ابن الله فلنتمسك بالإقرار لأن ليس لنا رئيس كهنة غير قادر أن يرثي لضعفاتنا بل مجرب في كل شيء مثلنا بلا خطية. فلنتقدم بثقة إلي عرش النعمة لكي ننال رحمة ونجد نعمة عوناً في حينه" (عب ٤:١٤-١٦).

وهكذا نري أن طريق الدم إنما يقودنا إلي العرش... عرش النعمة...

كما أن طريق الدم يدفعنا إلي بذل الدماء وأن نحارب حتي الدم مجاهدين ضد الخطية. إن طريق الدم هو طريق الجهاد. ألم يقل يسوع "ادخلوا من الباب الضيق. لأنه واسع الباب ورحب الطريق الذي يؤدي إلي الهلاك. وكثيرون هم الذين يدخلون منه. ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذي يؤدي إلي الحياة. وقليلون هم الذين يجدونه" (مت ٧: ١٣، ١٤).

حقاً ما أشق الجهاد ضد الجسد ونزواته والعالم وإغراءاته. علي أننا في هذا الطريق الضيق نشعر بأننا لسنا وحدنا. لأن هذا الطريق سلكه يسوع من قبلنا، طريق مغطي بدم يسوع ونحن إذ نسير فيه نشعر بأن دماء يسوع تغطينا وتتسرب داخلنا لتعطينا الشجاعة لنتقدم إلي الأمام...

لكن الشيء العجيب أن هذا الطريق هو الذي يقودنا إلي عرش النعمة، هناك ننال الرحمة ونجد النعمة عوناً في حينه. هنا يتحول الطريق الكرب فجأة إلي طريق رحب فسيح! "في الضيق رحبت لي" (مز ٤: ١).

إذاً فطريق الدم هو طريق الكفاح والنمو والنضوج وهو أيضاً طريق الأنشودة الشجية. إنه طريق الترانيم والأغاني الروحية، ترانيم موضوعها واحد "الذي أحبني وأسلم نفسه من أجلي" (غل ٢: ٢٠).

ومن العجيب أن هذه الأغاني لا تشدو بها الملائكة وما كان لنزيل جنة عدن أن يرددها. إنها أناشيد لا يرددها إلا المفديون بالدم الذين بيضوا ثيابهم وغسّلوا ثيابهم في دم الخروف.

٦- أنا هو الحياة

"أنا هو الحياة..."

"أنا هو القيامة والحياة من آمن بي ولو مات فسيحيا" (يو ١١:٢٥)

"أنا هو الطريق والحق والحياة ليس أحد يأتي إلي الآب إلا بي" (يو ١٤:٦).

هذا ما قاله الرب يسوع عن نفسه. ومن الطبيعي أن يكون الرب يسوع هو الحياة لأنه هو الحق.. وهو النور.. وهو الخبز.. وهو الراعي.. وهو الباب.. وهو الطريق.. وهو القيامة...

والكتاب مليء بالآيات التي تؤكد أن الرب يسوع هو رئيس الحياة وفيه الحياة وواهب الحياة.

رئيس الحياة

ولأن الرب يسوع هو رئيس الحياة استهل البشير يوحنا إنجيله بهذه الكلمات العميقة عمق الأزل فقال "في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله. هذا كان في البدء عند الله. كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان. فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس. والنور يضيء في الظملة والظملة لم تدركه" (يو ١:١-٥).

ولقد قال الرسول بطرس عن الرب يسوع إنه "رئيس الحياة" أما كاتب سفر العبرانيين فيكشف عن حقيقة رئيس الحياة عندما قال "الله بعدما كلم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه الذي جعله وارثاً لكل شيء الذي به أيضاً عمل العالمين الذي وهو بهاء مجده ورسم جوهره وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته بعدما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا جلس في يمين العظمة في الأعالي صائراً أعظم من الملائكة بمقدار ما ورث اسماً أفضل منهم" (عب ١:١-٤).

في هذه الكلمات القليلة كتب الوحي ليكشف لنا عن حقيقة رئيس الحياة فهو بهاء مجد الله ورسم جوهره، إنه هو الذي عمل العالمين وهو الذي يحمل كل الأشياء بكلمة قدرته وهو الذي صنع تطهيراً لخطايانا بنفسه. أي أن الرب يسوع وهو رسم جوهر الآب هو الذي عمل العالمين وهو مازال يحمل الأكوان ويحفظها وهو أيضاً الذي يجددها ويطهرها.

لقد سطر لنا الوحي سطوراً من نور ليكشف لنا عن أسرار الأزل، لكن كيف بدا لنا الكلمة الأزلي عندما تجسد ليحل بيننا. هنا أخذ يوحنا يردد تلك الكلمات الرائعة العجيبة "والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً" (يو ١:١٤).

ونحن لا يمكننا أن نكرر ما سبق وكتبناه بإسهاب وبعجز شديد عن أمجاد رب المجد. لقد كانت حياته حياة نورانية تشع بالبهاء والنقاء والقوة والمجد. لذا لم يكن عجيباً أن يظهر رب المجد علي حقيقته فوق جبل

التجلي. هناك تغيرت هيئته وأضاء وجهه كالشمس أما ثيابه فكانت تلمع بيضاء جداً كالثلج لا يقدر قصار علي الأرض أن يبيض مثلها (مت ١٧:٢، مر ٩:٣). وإن كان وجه السيد يدل علي شخصيته فإن لباسه يدل علي مسلكه. وهنا قال مرقس عن ثيابه إنها كانت تلمع بيضاء كالثلج لا يقدر قصار علي الأرض أن يبيض مثلها. أي أنه لا توجد غسالات أو أعمال أرضية يمكن أن تبيض مثلها. إن تلك الشخصية السماوية كانت لها سلوكيات سماوية وإن خطت علي الأرض. إنه من فوق وهو فوق الجميع.

أنا هو القيامة والحياة

يقول البشير يوحنا "فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس. والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه" هنا يتضح لنا أن يسوع جاء إلي العالم ليعطينا حياة النور أو الحياة في النور. والنور يجسم كل ما هو طاهر وجليل ويعبر عن النقاء والبهاء والفرح والسرور والسعادة والسلام والقوة والمجد والرفعة والعظمة... وهكذا بدا يسوع فوق جبل التجلي وجهه يضيء كالشمس وثيابه بيضاء كالثلج. ولقد قضي حياته كلها وسط ظلام العالم وكان في كل خطوة خطاها يكشف عن معني حياة النور ويؤكد أنه هو النور الذي يضيء في الظلمة والظلمة لم تقدر أن تدركه. لقد سار يسوع حقاً وسط ظلمات العالم بكل ما فيها من شرور وتجارب وآلام وكراهية، وواجه كل هذه الأعاصير وهو في رفعة ونقاء وعطاء وصبر وحب. وجاءت أخيراً صخرة الجلجثة لتجسم القمة لكل هذه التناقضات مجتمعة معاً، لهذا فإن

القبر الذي أنزلوه إليه لم يستطع أن يضمه. وقام يسوع مؤكداً نصرته علي كل جند الظلام. وفي قيامته أضاء القبر وهكذا أراد يسوع أن ينزل إلي القبر حتي يقوم من هناك ليؤكد لنا أنه يستطيع أن يقيمنا من موتنا وأن يبدد كل ظلمات حياتنا.

فعندما قال يسوع لمريم "أنا هو القيامة والحياة" لم تتأثر مريم كثيراً بهذه الكلمات وظلت في ظلام الحزن حتي صاح يسوع "لعازر هلم خارجاً". هنا تأكد لمريم أن يسوع هو حقاً القيامة وهو الحياة. وهكذا فإن كلمات يسوع دائماً هي الحق والصدق. لم يطلق أبداً شعارات خلابة فارغة من المضمون. كلا لقد أكد يسوع أنه رئيس الحياة وهو معطي الحياة وأنه قادر أن يقيمنا من قبورنا. ولو لم يكن يسوع كذلك ما استفدنا منه شيئاً، وبقينا في حسرة أو في نقمة علي ذلك الذي كشف لنا عن حقيقة الحياة في النور ثم تركنا نعيش كالخفافيش في دياجير الظلام. أمام نورانية يسوع تجسّم الظلام. حقاً كيف تشوه الإنسان إلي هذا الحد واستمرأ حياة الفجور والإباحية والرذيلة وأحال دنياه إلي جحيم لا يطاق.

لكن يسوع لم يأت ليقف فوق جبل التجلي بعيداً وهو في قمة المجد والبهاء، لكنه بعد أن كشف عن حقيقة ذاته وعن ما هو معني حياة النور نزل من فوق الجبل إلي الوهاد والجحور المظلمة التي نعيش فيها ليفجّر في دنيانا وفي داخلنا الضياء. لقد كان هذا هو غرض رئيس الحياة أن يفجّر في عالمنا وفي داخل قلوبنا الضياء، لكن هل استطاع يسوع أن يحقق هذا

الهدف العظيم، وأن يتمم ما قاله عنه يوحنا البشير "كان النور الذي ينير كل إنسان آتياً إلي العالم". هل استطاع يسوع أن يحقق هذا الإنجاز العظيم!!..

نعم...

يقول أيوب "يغني بين الناس فيقول قد أخطأت وعوجت المستقيم ولم أجاز عليه. فدي نفسي من العبور إلي الحفرة فتري حياتي النور" (أي ٣٣:٢٧، ٢٨) ويقول الرسول "وأما أنتم فجنس مختار وكهنوت ملوكي أمة مقدسة شعب اقتناء لكي تخبروا بفضائل الذي دعاكم من الظلمة إلي نوره العجيب" (١بط ٢:٩).

هذا هو دمي

"أتيت ليكون لهم حيوة". كيف؟؟..

هل يقدر يسوع حقاً أن يقيمنا من موتنا؟.. هل يقدر أن ينزع من داخلنا قلوبنا الحجرية ويعطينا قلوباً طاهرة نقية؟!.. هل يمكن أن يتحقق النداء "ليترك الشرير طريقه ورجل الإثم أفكاره وليتب إلي الرب فيرحمه وإلي إلهنا لأنه يكثر الغفران" (إش ٥٥:٧). نعم.. إن يسوع الذي استطاع أن يقيم لعازر بعد أن أنتن يستطيع أن يقيم البشرية كلها.

ومن العجيب أن يسوع يعالج البشرية بالصدمة حتي تقوم من سباتها وتنطلق من جديد في الحياة. لم يعرف الإنسان في وقتها أن تلك الكأس

التي قدمها يسوع لتلاميذه وللبشرية، فيها تلك القوة الهائلة التي تستطيع أن تحطم القبور وتمزق القيود وتقيم الأجساد العفنة وتحرك العظام اليابسة وتفتح العيون المغلقة وتدفع الإنسان خارجاً من ظلمات القبور إلي حياة جديدة لها طموحات وأغراض نبيلة. حياة كلها طهر ونقاء...

هذا هو دمي.. هذا هو موتي...

والمسيح يريدنا أن نبدأ معه من جديد ذلك بأن ندفن الماضي. وقالها صراحة "إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه كل يوم ويتبعني" (مت ١٦:٢٤). وقال الرسول ليكشف عن حقيقة الحياة مع المسيح "مع المسيح صلبت فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيّ" (غل ٢: ٢٠) وبوضوح أكثر يخاطب كنيسة كولوسي قائلاً "فأميتوا أعضاءكم التي علي الأرض الزنا والنجاسة الهوي الشهوة الردية الطمع الذي هو عبادة الأوثان" (كو ٣:٥).

إن الرب يسوع يريد أن يبدأ معنا من جديد بعد أن نموت عن الخطية لنحيا في البر. وعندما قدم يسوع الكأس لتلاميذه قائلاً "هذا هو دمي" (مر ١٤:٢٤) فإنه كان يعني أن هذه هي نقطة البداية. النقطة التي نتلاقي فيها مع المصلوب ونرتقي معه صخرة الجلجثة ونعاينه وهو معلق فوق الصليب نيابة عنا ونشاهد كم كان موته قاسياً مهيناً مرعباً.

فعندما قدم الرب يسوع الكأس لتلاميذه قائلاً "هذا هو دمي" كان يريد أن يقول لهم "هذا هو موتي". كل مرة تأخذون من هذه الكأس يجب أن

تتذكروا موتي. بل يجب أن تتذكروا موتي في كل دقيقة وكل لحظة من لحظات الحياة.

ونحن كثيراً ما نريد أن نتجاهل موت الرب وننساه. فإن موت الرب يجسم لنا بشاعة خطايانا وشرورنا وفساد طبيعتنا. لذا فإن الرب يسوع في إصرار تام يقدم لنا هذه الكأس حتي تتم المواجهة مع أنفسنا ونصرخ من أعماق القلب "ويحي أنا الإنسان الشقي من ينقذني من جسد هذا الموت" (رو ٧:٢٤).

والصدمة الرهيبة التي تصيب الإنسان عندما يعاين المسيح وهو معلق فوق الصليب لا يمكن لأحد أن يدرك مدي فاعليتها وأبعاد تأثيراتها. لكنها أول كل شيء فإنها تقتل الخطية في قلب الإنسان. وعندما قال الرسول "دم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية" (١يو ١:٧) فإنه كان يعني أن دم يسوع يقتل الخطية الدفينة داخلنا وأنه بذلك ينزع من داخلنا قلوبنا الحجرية القاسية الشرسة ويعطينا قلب لحم كله محبة ورحمة وصلاح.

هذا هو دمي.. هذا هو غفراني...

لقد قال يسوع لتلاميذه بهدوء شديد وبلطف وتواضع "هذا هو دمي" لكن هذه الكلمات التي قيلت بهدوء أصبح لها دوي هائل يهز كيان الإنسان هزاً عنيفاً. هي صيحة الموت وفي نفس الوقت هي صيحة الحياة. ففي نفس الوقت الذي يكشف فيه دم يسوع شناعة وبشاعة خطايانا في نفس اللحظة يشع علينا بنور الأمل والرجاء. إن هذا الدم يصعد ضارعاً إلي الله منادياً

بالغفران. إن دماء القديسين تنادي قائلة "حتي متي أيها السيد القدوس والحق لا تقضي وتنتقم لدمائنا من الساكنين علي الأرض" (رؤ ٦: ١٠). لكن دم الرب يسوع يتكلم أفضل من دماء القديسين منادياً بالغفران. والرب يسوع يريدنا أن نصعد تلة الجلجثة لنشاهده وهو ينادي من أعماق قلبه الجريح قائلاً "يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون" (لو ٢٣:٣٤) وسوف تبقي البشرية في ذهول تام وهي تسمع السيد ينادي بكل لجاجة بصوت كله عذوبة ومحبة منادياً بالصفح لصالبيه. لصالبيه الواقفين فوق صخرة الجلجثة وفي كل الأجيال والعصور، لكن هل كان يسوع ليقدر أن ينادي بالغفران لو لم يسفك من أجلنا دماه؟!.. لقد كان هذا هو الحلم الذي يراود البشرية في كل العصور. ويقول ميخا "بم أتقدم إلي الرب وأنحني للإله العلي. هل أتقدم بمحرقات بعجول أبناء سنة. هل يسرّ الرب بألوف الكباش بربوات أنهار زيت. هل أعطي بكري عن معصيتي ثمرة جسدي عن خطية نفسي" (ميخا ٦:٧). ويقول داود في روح الانكسار "لأنك لا تسرّ بذبيحة وإلا فكنت أقدمها. بمحرقة لا ترضي" (مز ٥١:١٦). لقد خيم علي البشرية روح اليأس ودفع ذلك الإنسان لمزيد من التمرد والضلال. وفي وسط هذا الجو المفزع الكئيب صاح يسوع فوق الجلجثة "يا أبتاه اغفر لهم". ولقد كان لصيحة الغفران دويها الشديد فانشق أمامها الحجاب الحاجز أي العداوة.

وعاد الأثيم إلي حضن الآب. فقال اللص اذكرني يا رب متي جئت في

ملكوتك. وفي الحال أجابه يسوع "اليوم تكون معي في الفردوس".

هذا هو دمي... هذا هو عهدي...

في الليلة الأخيرة أمسك يسوع بالكأس وقدمها لتلاميذه، وعندما امتدت أيدي التلاميذ لتمسك بالكأس تلاقت الأيدي حول هذه الكأس وتماسكت. وهنا قال يسوع لتلاميذه "هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا" (مت ٢٦:٢٨).



لقد كان الرب يمد يده للإنسان دائماً. وكانت المبادرة دائماً هي من الله في سعي دؤوب وراء الإنسان ليطوقه بذراعيه ويأخذه بين أحضانه.. في هذا قال الرب "أصغيت إلي الذين لم يسألوا. وُجدت من الذين لم يطلبوني قلت

هأنذا هأنذا لأمة لم تسمّ باسمي. بسطت بديّ طول النهار إلي شعب متمرد سائر في طريق غير صالح وراء أفكاره" (إش ٦٥:١، ٢). ويؤكد الرب قائلاً "ارجعوا إليّ أرجع إليكم" (ملا ٣:٧). وفي صوت كله حب وحنان يقول "أيها العطاش جميعاً هلموا إلي المياه والذي ليس له فضة تعالوا اشتروا وكلوا هلموا اشتروا بلا فضة وبلا ثمن خمراً ولبناً. لماذا تزنون فضة لغير خبز وتعبكم لغير شبع استمعوا لي استماعاً وكلوا الطيب ولتتلذذ بالدسم أنفسكم. أميلوا آذانكم وهلموا إليّ. اسمعوا فتحيا أنفسكم وأقطع لكم عهداً أبدياً مراحم داود الصادقة" (إش ٥٥:١-٣). ويؤكد الرب هذه المواعيد قائلاً "لحيظة تركتك وبمراحم عظيمة سأجمعك بفيضان الغضب حجبت وجهي عنك لحظة وبإحسان أبدي أرحمك قال وليك الرب. لأنه كمياه نوح هذه لي. كما حلفت أن لا تعبر بعد مياه نوح علي الأرض هكذا حلفت أن لا أغضب عليك ولا أزجرك. فإن الجبال تزول والآكام تتزعزع أما إحساني فلا يزول عنك وعهد سلامي لا يتزعزع قال راحمك الرب" (إش ٥٤:٧-١٠).

لقد أراد الرب أن يؤكد أن هذا العهد لا يمكن أن يزول لأنه عهد دم جديد والضمان الوحيد في هذا أن يسوع يمد يده المثقوبة ليمسك بأيدينا. وهو في كل وقت يؤكد حبه وتمسكه بنا قائلاً "لا تخف لأني فديتك دعوتك باسمك أنت لي. إذا اجتزت في المياه فأنا معك وفي الأنهار فلا تغمرك. إذا مشيت في النار فلا تلذع واللهيب لا يحرقك. لأني أنا الرب إلهك قدوس إسرائيل مخلصك جعلت مصر فديتك كوش وسبا عوضك. إذ صرت عزيزاً في عينيّ

مكرماً وأنا قد أحببتك" (إش ٤٣:١-٤). ويؤكد الرسول كل هذه المعاني قائلاً "وإله السلام الذي أقام من الأموات راعي الخراف العظيم ربنا يسوع بدم العهد الأبدي. ليكملكم في كل عمل صالح لتصنعوا مشيئته عاملاً فيكم ما يرضي أمامه بيسوع المسيح الذي له المجد إلي أبد الآبدين. آمين" (عب ١٣: ٢٠، ٢١).

هذا هو دمي.. هذا هو سلامي...

من كل ما سبق نستطيع أن نردد مع الرسول "إذ قد تبررنا بالإيمان لنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح الذي به أيضاً قد صار لنا الدخول بالإيمان إلي هذه النعمة التي نحن فيها مقيمون ونفتخر علي رجاء مجد الله" (رو ٥:١، ٢). إن هذا السلام ما كان ليصير لنا بدون دم المسيح. ويستفيض الرسول قائلاً "لذلك اذكروا أنكم أنتم الأمم قبلاً في الجسد المدعوين غرلة من المدعو ختاناً مصنوعاً باليد في الجسد. إنكم كنتم في ذلك الوقت بدون مسيح أجنبيين عن رعوية إسرائيل وغرباء عن عهود الموعد لا رجاء لكم وبلا إله في العالم. ولكن الآن في المسيح يسوع أنتم الذين كنتم قبلاً بعيدين صرتم قريبين بدم المسيح. لأنه هو سلامنا الذي جعل الاثنين واحداً. ونقض حائط السياج المتوسط أي العداوة. مبطلاً بجسده ناموس الوصايا في فرائض لكي يخلق الاثنين في نفسه إنساناً واحداً جديداً. صانعاً سلاماً. ويصالح الاثنين في جسد واحد مع الله بالصليب قاتلاً العداوة به." (أف ٢:١٠-١٦).

إن يسوع هو الشخص الوحيد الذي يقدر أن يجمع شمل الإنسانية الممزقة ذلك بعد أن تمزق جسده ليصالح الجميع مع الله. هو الشخص الوحيد الذي يقدر أن يقتل العداوة ويقتل أيضاً كل مشاعر المرارة والحقد ويفك الإنسان من قيود الغيظ والغضب والسخط ليستنشق نسيم المحبة والسلام. إنه هو سلامنا لأنه رئيس السلام...

هذا هو دمي... هذا هو سروري...

في الليلة الأخيرة قدم يسوع لتلاميذه الكأس وقال "هذا هو دمي" وكان في صوته رنة الشجن والألم. فإن ذلك الدم الذي سفك لم يتم فجأة أو دون أن يحس بوجع أو ألم بل تم ذلك بطريقة قاسية مرعبة، حتي أن النبي قال "وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل أثامنا" (إش ٥٣:٥) وينبغي للإنسان أن يتأمل دائماً في جراح الصليب الغائرة ليدرك شيئاً عن الآلام التي قاساها المسيح لأجله.

كان حديث الدم لابد وأن يثير الشجن. لكن الرب يسوع بعد ذلك استفاض في حديث طويل مع تلاميذه، وعندما نتأمل التلاميذ وهم يستمعون إلي هذا الحديث الخاص العجيب نراهم مشدوهين وكأن هذا الحديث قد سما بهم فوق العالم. لقد أخذهم حديث الألم هذا إلي داخل قدس الأقداس دون أن يعرفوا. هناك سمعوا يسوع يقول لهم "سلاماً أترك لكم. سلامي أعطيكم" (يو ١٤:٢٧). "أنتم أحبائي إن فعلتم ما أوصيكم به" (يو ١٥:١٤). "الآب نفسه يحبكم" (يو ١٦:٢٧) "في العالم سيكون لكم ضيق

لكن ثقوا أنا قد غلبت العالم" (يو ١٦:٣٣) "لأجلهم أقدس أنا ذاتي" (يو ١٧:١٩) "أنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني" (يو ١٧:٢٢).

لقد كان هذا هو حديث الوداع، حديث الدم. والبشرية كلها تنصت إلي كلمات يسوع في تلك الليلة العجيبة وهي لا تقدر أن تستوعب كل المعاني. والإنسان عندما يتأمل في كل الكلمات يحس بالشبع وبالراحة بالتعزية والسلام، وفوق ذلك يغمره فرح سماوي عجيب. ويقول الكتاب عن التلاميذ إنهم بعد أن سمعوا هذا الحديث العجيب "ثم سبحوا وخرجوا إلي جبل الزيتون" (مت ٢٦: ٣٠).

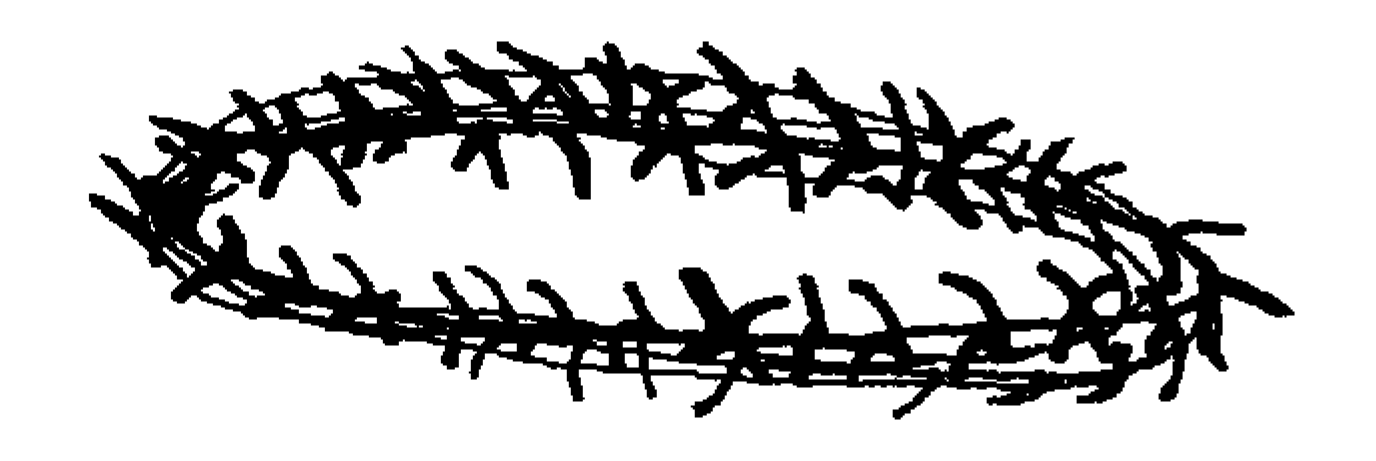
نعم، إن حديث الدم لابد وأن يثير الشجن في أول الأمر، لكن يسوع لا يطيق أن يرانا في دموعنا. لقد جاء ليمسح كل دمعة من عيوننا. ولا طعم للحياة إذا قضيناها في حزن وألم. لذا فإن يسوع وهو واقف علي قرب من الصليب قال لتلاميذه "أنتم ستحزنون ولكن حزنكم يتحول إلي فرح"، "فأنتم كذلك عندكم الآن حزن ولكني سأراكم أيضاً فتفرح قلوبكم ولا ينزع أحد فرحكم منكم" (يو ١٦: ٢٠، ٢٢).

مهما كانت الأشجان فإن رؤية يسوع تبدد كل حزن. ونحن عندما نمسك بالكأس فنحن نري يسوع من خلال جراحه علي حقيقته. ويقول الكتاب عن الشخص الحبشي أنه بعد إن عرف من هو الذي جرح من أجل معاصيه وسحق من أجل آثامه، يقول إنه انطلق في طريقه فرحاً.

وهذا ما يريده يسوع لنا أن نتقابل معه عند الجلجثة ونبكي هناك ما

شئنا علي خطايانا، ثم ننطلق في طريقنا فرحين. ونحن بدون شك يمكننا أن نغني ونترنم طول الحياة وطول الأبدية لذاك الذي ذبح واشترانا بدمه. ونحن نستطيع أن نترنم له مهما كانت الظروف. نترنم في روح من الخشوع والولاء والتعبد، نترنم له في كل خطوة مشاها في الطريق إلي الجلجثة، نترنم له في وقار عندما رفع فوق خشبة العار، وبالأحري نترنم له عندما قام ظافراً منتصراً. ونحن نستطيع أيضاً أن نترنم في كل ظروف الحياة لأننا نجده يسير بجوارنا يشد من أزرنا، ونحس به يقف معنا وسط عواصف الزمن ويمشي معنا في دروب الأحزان والآلام. ونستطيع أن نقول بحق مع المرنم "حولت نوحي إلي رقص لي، حللت مسحي ومنطقتني فرحاً" (مز ٣٠:١١).

هذا هو دمي... هذا هو حبي...





عندما يمسك الإنسان بالكأس لابد وأن يري داخله صورة يسوع وهو مكلل بالشوك. وهنا يحس الإنسان بالدهشة فهل هكذا تتوج المحبة؟!. وهل هكذا يشجعنا يسوع لأن نسير خلفه؟!...

في كل خطوة مشاها وفي كل كلمة قالها كانت المحبة تتجسم. لقد كان يسوع هو الحب المتجسد. وعندما جاءه ناموسي ليجربه قائلاً "يا معلم أية وصية هي العظمي في الناموس فقال له يسوع تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك هذه هي الوصية الأولي والعظمي والثانية مثلها تحب قريبك كنفسك بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء" (مت ٢٢:٣٦-٤٠).

لقد أتي يسوع ليوصينا بالحب وليقدم لنا المثل فقال "هذه هي وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم. ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه" (يو ١٥:١٢، ١٣). وهنا كأني به يؤكد أنه بالرغم من أنه أوصانا بالحب لكنه يدرك كل الإدراك صعوبة هذه الوصية. إذ كيف يمكن للإنسان أن يعيش حياة المحبة وهو يعيش في عالم مشحون بالصراعات والأحقاد؟!.. كيف يمكن للإنسان أن يثبت في المحبة أمام أمواج عاتية من البغضة والكراهية؟!.. كيف يطلب يسوع من الإنسان أن يعيش الحب، الحب من كل القلب والفكر والنفس وهو يعرف أنه بداخل الإنسان توجد الغرائز التي تدفعه دفعاً للشر والرذيلة؟!..

وهنا يأتي يسوع ويقول لتلاميذه "ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع

أحد نفسه لأجل أحبائه". وهنا قدم يسوع لتلاميذه القدوة والقوة لأن يتبعوه.

واليوم عندما يقدم يسوع لنا الكأس فإنه يهمس في أذاننا قائلاً هذا هو حبي الدامي. هذا هو حبي الذي بلا حدود. لقد أوصيتكم بالحب من كل القلب ومن كل النفس ومن كل القوة ولقد أحببتكم أنا هكذا. ألم أحبكم من كل القلب عندما سفكت دمي من أجلكم؟!... وألم أحبكم من كل النفس عندما حملت خطاياكم في جسدي علي الخشبة؟!.. وألم أحبكم من كل قوتي عندما خرجت حاملاً صليب العار نحو الجلجثة؟!...

وكأني بيسوع عندما يقدم لنا الكأس يقول في هذه الكأس تكمن القوة للحب.. القوة للحياة... من أجل هذا كان الرسول يصلي بلجاجة قائلاً "بسبب هذا أحني ركبتي لدي أبي ربنا يسوع المسيح... ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم. وأنتم متأصلون ومتأسسون في المحبة حتي تستطيعوا أن تدركوا مع جميع القديسين ما هو العرض والطول والعمق والعلو. وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة لكي تمتلئوا إلي كل ملء الله" (أف ٣:١٤-١٩).

وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة!!.. لكن كيف؟.. فما هو العرض والطول؟.. وما هو العمق والعلو؟... إن العرض هو عرض العالم.. والطول هو طول الأبدية.. والعمق هو عمق الهاوية.. والعلو هو أعلي من السموات...

وحتي نتأصل ونتأسس في هذه المحبة العجيبة، يقدم لنا يسوع هذه

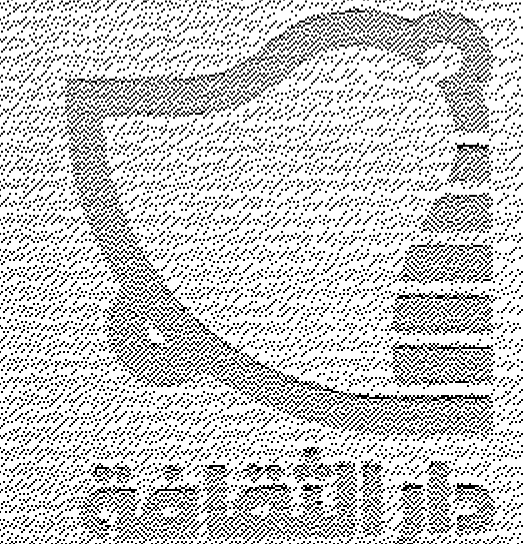
الكأس العجيبة وعلي شفتيه ابتسامة عذبة قائلاً إن هذه الكأس الصغيرة لها أبعاد لا نهائية ذلك لأني أقدم لكم فيها دمي.. أقدم لكم فيها حبي...

لا عجب فإننا عندما نمسك بهذه الكأس فإنها تحلق بنا بعيداً بعيداً فوق العالم وتأخذنا إلي ذلك الجنب المطعون لنمضي العمر كله هناك للاختفاء ثم للانطلاق من جديد لحياة يشع منها الحب والنور والبهاء.

لقد جاءت هذه الدراسة التى تدور حول شخص المسيح فى صيغة تأملات هادئة بمداد من الحب. ونحن نحتاج دائما لأقلام العشاق فهى وحدها التى تستطيع أن تكتشف الحب وتصور الجمال وتصل إلى القلب.

ولقد جاء عنوان هذا الكتاب مثيرا ، فمن ذا الذى يستطيع أن يقف وسط التاريخ مناديا (أنا هو الحياة) ؟!!!

غير أن العلم سرعان ماكتشف صدق هذا النداء وشدة حاجته إليه. فالبشرية التى ضلت الطريق مازالت تدمر نفسها على صخور صراعها وتغرق نفسها فى بحار شهواتها لهذا قد جاء هذا الكتاب فى وقته يجدد الدعوة للإنسان فى كل مكان وزمان حتى يجد الحياة الفضلى فى شخص رب الحياة يسوع ...



دار الثقافة